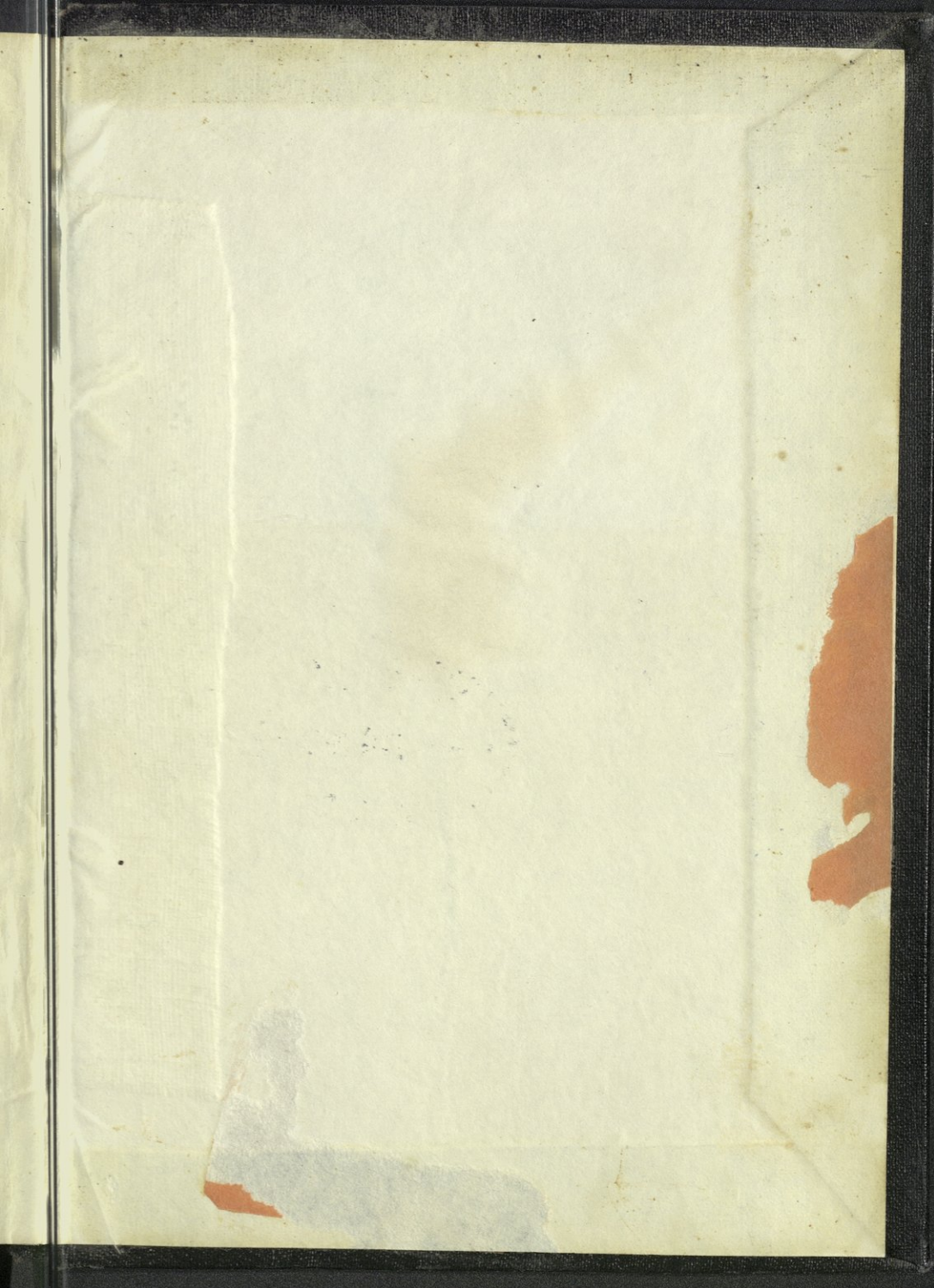


البنا

مسؤولية الاتصال

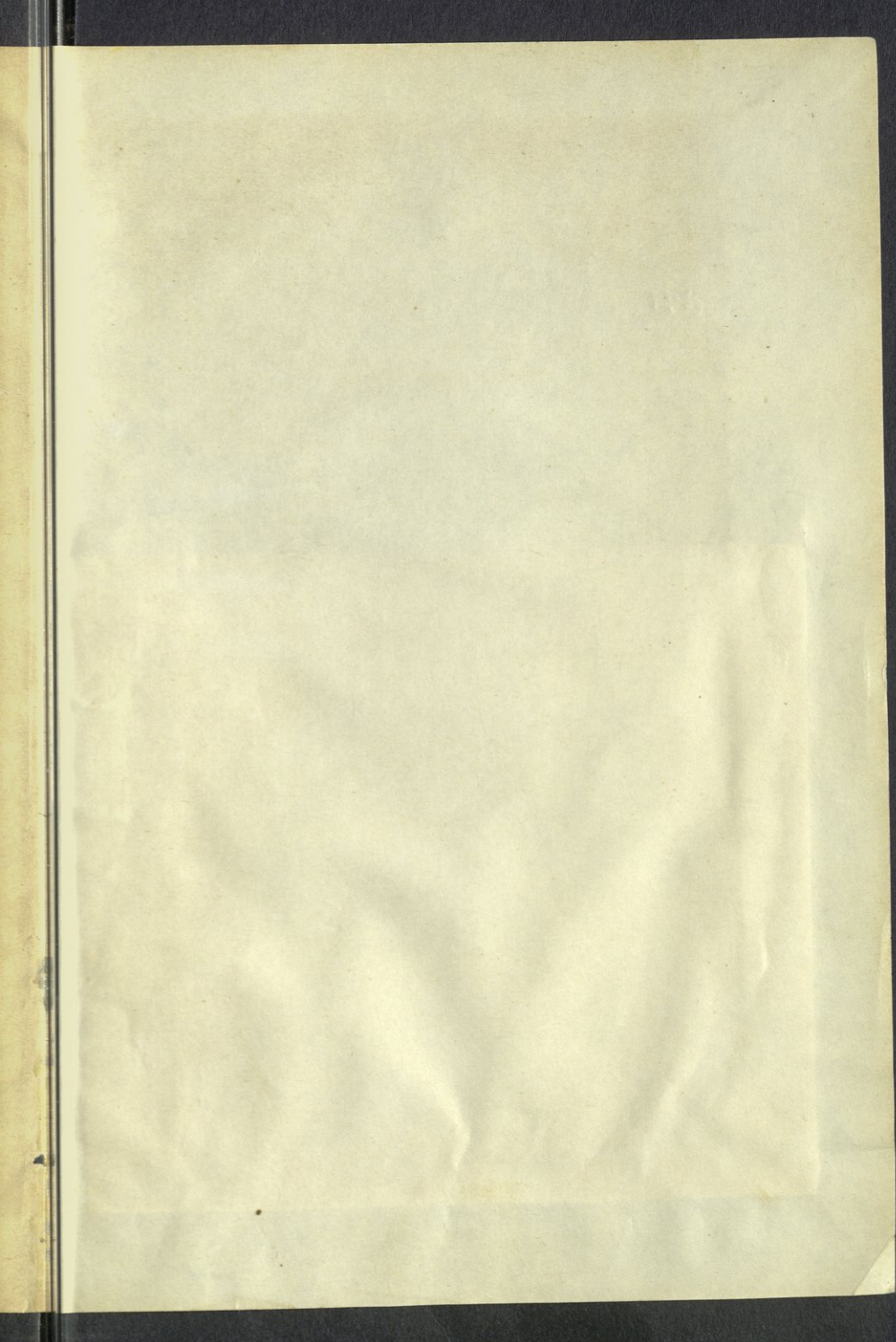


301.155
B21m A

~~NO 3~~

~~13 Mar 62~~





301.155
B21 mH
C.I

مسألة الانحلال

بين الشعوب والقارة

كما يوضحها القرآن الكريم

تأليف

محمد البنا

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٩٥٢



فصل الثانی
در بیان
تأسیس و تنظیم
مدرسه

اهداء

إلى الشعوب

الطاحنة في حقول السقاء . وزوايا الفسيحة

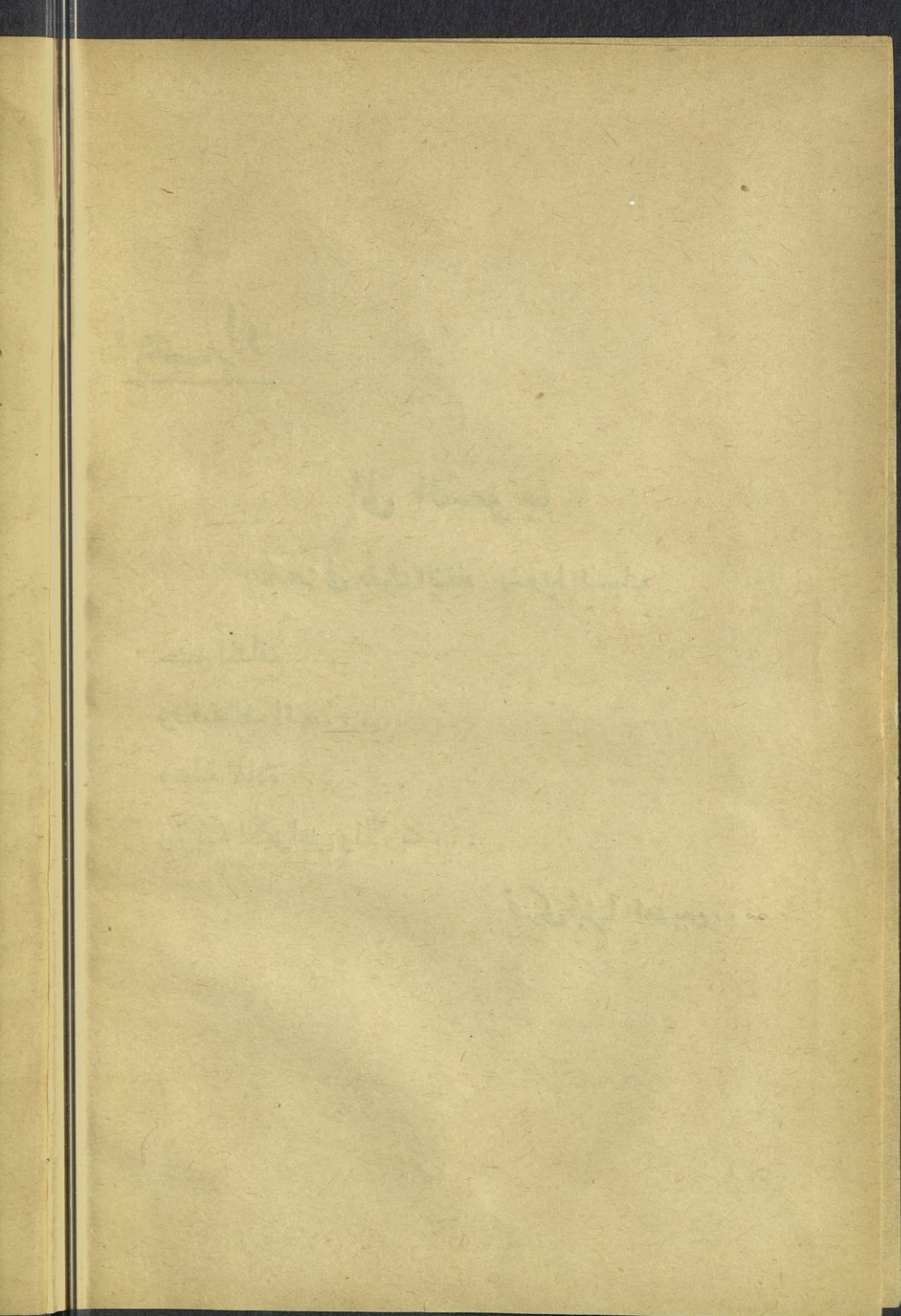
حشو المدافع ...

ودافعة الضرائب ...

ومطية القادة ...

وفريسة الأمراض والأوبئة ...

نحمر كي أبنها الملايين ...



مقدمة

هل هناك ما هو أشد أخذاً بالألباب واستثارة للحواس من أطلال
المدنيات . وركام الحضارات . وآثار الأقدمين . من بئر معطلة أو قصر
مشيد . . . أو طلل دارس . . . ؟

لقد مست هذه المناظر أفئدة الشعراء الأقدمين فوقفوا بها « وقوف
يخيل ضاع في الترب خاتمه . . . » كما قال المتنبي . وافتقدوا الحبيب المهاجر .
والذكريات العذبة الماضية التي تصفق بها الرياح . وتسخر منها الأنواء . وتعمل
فيها عوامل التعرية يدها القاسية . . .

ووقف بها الشعراء المعاصرون يصوبون البصر . ويكدون الذهن .
ويقولون كما قال شوقي بك :

حوادث قديمة اللياليد
فضن عن الملوك والقواد
وصرن وحى شاعر وشاد
وقفنة اليراع والمداد
يعطفن كل طيب الفواد
تهزه خيعة الأجماد
وروعة المقادر العوادى

ورأى فيها الحافرون على التاريخ والباحثون فى الأعماق صفحات من
تاريخ الأمم والشعوب تنطق بلسان مبين فى صمته ، عن الحياة الماضية والمدنية
الآفلة . وتوضح أسباب انحلالها من ترف يغرق الخاصة ويحيف على العامة .

ويخمل القوى ، ويبلد الحواس ، أو حرب شعواء تأتي على الأخضر واليابس وتودى بالشباب ، وتحيل العمار والمدن والقرى الساكنة ، والحياة الآمنة إلى ركام وخرائب ينقع فيها البوم وتشيع بين جنباتها الفوضى والاضطراب ، أو طغيان من القادة واستبداد بالحكم يجر وراءه الملايين الغافلة السادرة إلى هابوية الخراب ، ويسوقها سوق النعاج إلى مذبحه الشعوب .

وجاء القرآن العظيم فأزرى بكل ما عده . وفاق كل ما سبقه . واتخذ من الأمم السابقة . والقرون الموعلة في القدم . عظة وعبرة ضرب بها المثل للأجيال اللاحقة ، والأزمان الآتية . وجمع بين استثارة العواطف والقلوب ، وبين أعمال الفكر ، وتدبر العقل . وكرر هذه المعاني حتى لا تكاد تخلو منه سورة وحتى يتكرر في السورة الواحدة عدة مرات . وأرجع عوامل الانحلال إلى أسباب معلومة ، تتفق في كل الأمم والشعوب وتشابه على كر السنين ، ومر القرون .

ومن هنا تصبح هذه المعاني عظيمة الفائدة في موضوع ، هو في حد ذاته عظيم وهام ، ألا وهو تبيان حالة الانحلال الواقعة بالمسلمين . ومعرفة المسؤولين عنها . ومدى مسئوليتهم .

وناحية أخرى هي أن هذا الموضوع . بما يتطلبه من تحديد للعلاقة بين الفرد والدولة . الشعب والقيادة . وإيضاح لعوامل الانحلال . التي تتسلل إلى الأمم فتتخر فيها . وذكر لمدى مسئولية كل من القادة والشعوب ، هذه كلها من أعقد المواضيع ، وهي تزيد تعقداً وتشابكاً ، بقدر تعقد الحضارة وزيادة الحرية وثقل أعباء القادة والشعوب .

وكل جهد يتناول هذا الموضوع أو يحدد ناحية منه يساعدنا مساعدة

فعالة ، على تفهم الأوضاع الاجتماعية والمسئوليات الوظيفية . أعنى تلك التى تتعلق بالوظيفة . ولا سيما ونحن نرى أن العلم بهذه المسئوليات أو تقديرها غير متحقق حتى لأصحابها أنفسهم ، الذين كان يجب أن يلموا بها قبل ممارسة وظائفهم العامة . وما أكثر ما نسمع من الناس عن فلان من القادة أنه رجل طيب فى شخصه . كريم فى خلقه . ولكنه فاشل كقائد . أو أن له حاشية تفسد عليه أمره . ويدكرون ذلك كتبرير للأخطاء أو إخلاء للمسئولية ، ولو علموا أن العبرة فى القيادة ليست بالطيبة أو الكرم أو الصفات الشخصية . وإنما هى فيما تتطلبه القيادة وتوجيهه لأدركوا — ولأدرك القادة أنفسهم — أن المسئولية واقعة عليهم مهما حاولوا التلمص . ولتكلفوا أن يصلحوا من أخطائهم ويقوموا من شئونهم . ولكان من المحتمل أن يصلح أمثال « عرابى » و « النحاس » كثيراً مما شاب حياتهم من الأخطاء . وأن يرفض السلطان « حسين كامل » ولعله كان أطيب أبناء الأسرة العلوية أن يكون الضحية المتطوعة لوضع مصر تحت حماية الانجليز . . .

ومن عجب أن هذا الموضوع الهام لم يظفر من الكتاب والمفسرين وعلماء الدين بكثير من العناية . فقد عنى المفسرون والدارسون لكتاب الله بتفسير كل سورة على حدة . واهتموا أشد الاهتمام باللغة والأحكام وأسباب النزول الخ . . . دون أن ينخطر لهم العناية بوحدة الموضوع أو استخلاص المعانى المتفقة من السور المتعددة . والنظر إلى القرآن كوحدة تكمل سوره بعضها بعضاً . واستخراج القواعد الأساسية منها .

وأظن أن فضيلة الإمام الشهيد حسن البنا هو أول من لفت الأذهان إلى ذلك فى هذا العصر . فقد قال فى العدد الأول من مجلة الشهاب فى شرح منهجه فى دراسة القرآن :

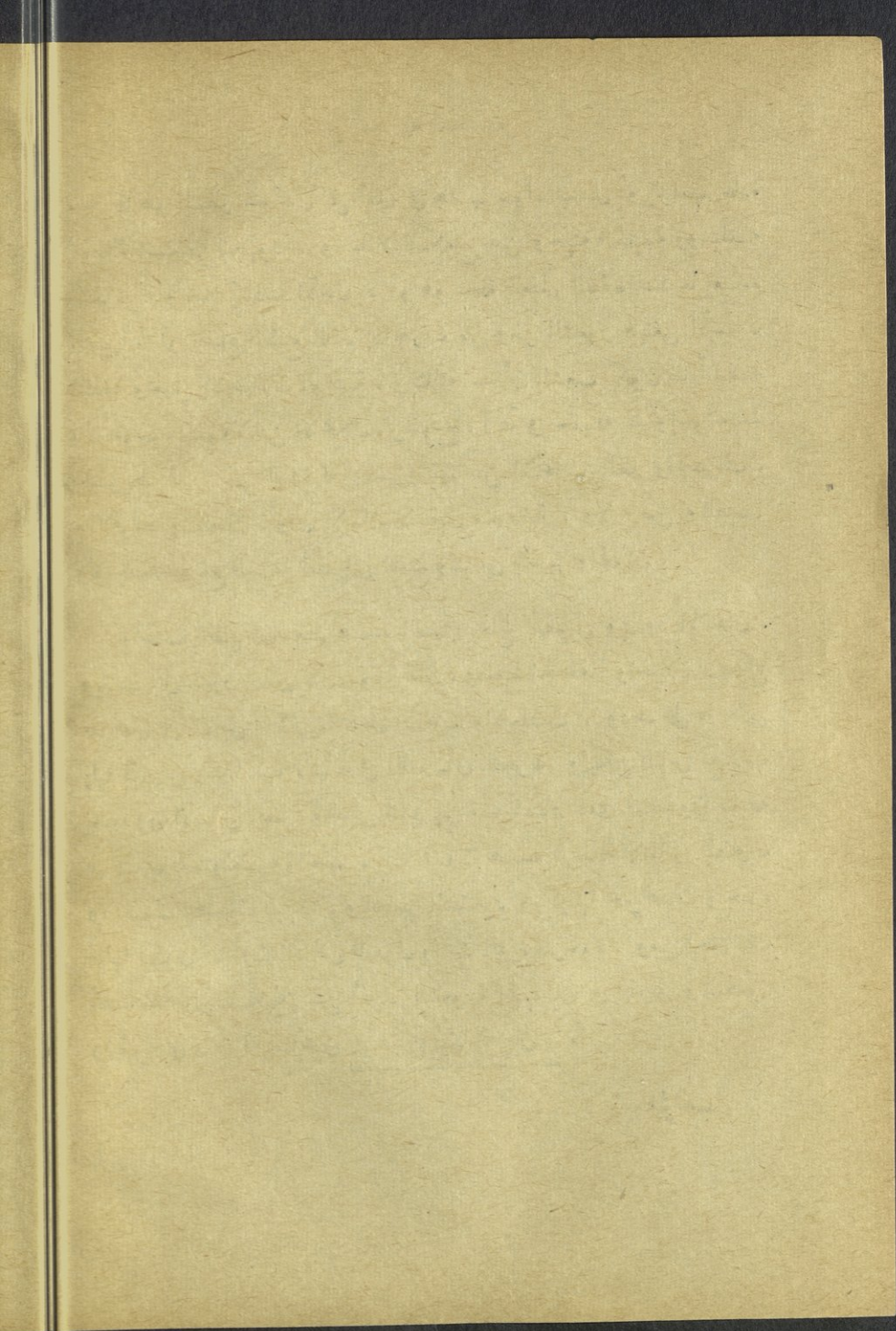
« .. وذلك بأن أتناول المقاصد العامة في القرآن الكريم بحسب ما يلهمني الله إياه من فهم وتدبر وفقه . وذلك ابتداء من فاتحة الكتاب الكريم إلى خاتمته إن شاء الله فأكون بذلك قد جمعت بين الحرص على الترتيب والإفادة من حيث وحدة الموضوع بقدر الإمكان . وإذا أعان الله على هذا العمل وباركه فسيكون عنوانه إن شاء الله . مقاصد القرآن الكريم » فلئن كان الجمع بين الترتيب وبين وحدة الموضوع جهد لا يستطيع القيام به إلا من رزق موهبة هذا الإمام العظيم فإن في الكتابات عن وحدة الموضوع مقنعاً كافياً للكتاب والباحثين .

وأخيراً ففعل هذه الرسالة أن تكون نقشة مكلم ، فاض بها الصدر . وأعلنها القلم . بعد أن جاوز الانحلال في هذه البلاد البائسة كل تقدير . وأريد لها أن تستنهض حامل الهمم وغافل الضائر . وأن تضع تحت أنظار الشعب الحقائق المجردة في هذا الموضوع التي يمكن تلخيصها في ثلاث قضايا تناولتها الرسالة بإسهاب ، ومن عدة زوايا : القضية الأولى — أن القيادة مسؤولية جسيمة وتبعة ثقيلة إذا أسئ فهمها فاعتبرت وسيلة ذاتية بدلا من تكون — كما هو المفروض — وظيفة عامة موضوعها الشعب . جرت على الملايين الآلام والمصائب . وكانت عاملاً أساسياً في انحلال الأمم والشعوب . ومن المؤسف أن القادة — ممثلين في الملوك والأمراء ورجال الدين ورجال المال — أساءوا دائماً فهمها ، وجعلوها — إلا ما ندر — طوعاً لأهوائهم ونزواتهم . والثانية — أن احتمال إصلاح القادة بعد تعودهم الطغيان واستمرارهم الاستبداد احتمال ضعيف ، حتى لو وجدت دواعيه . لأنه يخالف طبيعة الاستبداد وفطرة الطغاة . فإذا دلت الأحداث والتجارب على إصرارهم

— كما هو المنتظر — كان كل أمل في هديهم سواء السبيل أو إلزامهم جادة العدالة تبذيراً للجهد ، وتضليلاً للكفاح عن وجهته السليمة ووسيلته المثمرة ، وتعللاً بكاذب الآمال ، أو هو غفلة العقل السقيم عند ما يعدم التمييز . أو خداع الطبع اللثيم إذا هرب من وخز الشعور فابتغى الأسباب الملفقة وتعلق بالاحتمالات الواهية . والثالثة — أن الشعب يكون ظالماً لنفسه بالسكوت ، مسؤولاً عن الانحلال بالرضوخ ، آثماً في حقوقه — وإخوانه — بالتفريط قدر ظلم القادة له ومسؤوليتهم عن الانحلال بالظلم والإسراف ، والإفراط والبطحان . وأن الإسلام لا يقبل منه دنية ، ولا يرضى له الضيم . ولا يضعه موضع السائمة تقاد إلى الذبح وتساس بالقسر والهوان .

وأغلب الظن إن معظم هذه القضايا يحتاج النفوس ويراود الأذهان ، ويتردد بين ضمائر الناس لأن سوء الحالة ، وضغط الحاجة . واختلال الأوضاع قد فعل في الناس أكثر مما تفعل الكتب والأحاديث . ودلهم على ما ينتهي إليه الدرس والمذاكرة ، شأنه في ذلك شأن التجربة . ولكن الناس مع ذلك يفتقدون الأساس العلمي والديني لثورتهم . والسناد الذي يستندون عليه في قيامهم بمسئوليتهم وواجبهم ، فإذا قدمت هذه الرسالة الأساس المطلوب وانتظمت الحماسات المبددة ، والمشاعر المشتتة . وركزتها نحو هدف واحد ، فإنها تكون قد أدت الغرض المأمول وآتت الثمرة المرجوة . ومن أجل ذلك أهديناها إلى الملايين من أفراد الشعوب المحبولين في القرى والكفور والحوارى والأزقة صائحين « تحركى أيتها الملايين » ؟

المؤلف



الباب الأول

عنصر المسؤولية في القرآن الكريم

«..الرسالات السماوية والفطرة الحيرة عن يمينه . والشيطان وإغراء الشر عن يساره . وما يفعل من حسنة تكتب له وتضاعف وما يفعل من سيئة تكتب له دون زيادة . ومسئوليته من خير وشر واقعة عليه وحده . وباب التوبة مفتوح له ما بقيت الحياة . وهو غير مسئول عن أعمال الغير . غير مستعقب إذا اعتذر بلاغواء . مسامح إذا كانت السيئة عن سهو أو نسيان أو خطأ غير متعمد . أو بارغام لا طاقة له بدفعه . وفي جميع الحالات يكون العدل هو الجزاء الذي يوفى يوم القيامة مع إيثار ملحوظ للرحمة والسماحة .

(ص ٢٩)

نصوير المسؤولية في القرآن

المسؤولية في الأديان جميعاً هي أولى النتائج التي تترتب على الحقيقة الأساسية فيها . وهي الإيمان بوجود الله . والتي يترتب عليها — بالتالي — كل ما يأتي بعد ذلك من إيجاب للحساب لمكافئة المحسن ومعاقبة السيئ . وخلق للجنة والنار كأداتين لتحقيق ذلك ، وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين « لكي لا يكون للناس حجة على الله بعد الرسل » وحتى لا يقولوا « ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك . . ونكون من المؤمنين » .

فالشعور بالمسؤولية هو الإلزام المترتب على الإيمان بوجود الله عز وجل وهو الضوء الذي يمكننا أن نفهم به رسالة الدين ونفسر به سبب الامثال والطاعة . وهو الحبل المتين الذي يربط الأرض بالسما وتتنزل عليه الأوامر والنواهي الإلهية . فتسكن من القلوب حباتها . ومن النفوس أعماقها . وتسلم لها العقول . وتسكن إليها الحواس . . إذ عند ما تتيقن النفوس هذا المعنى وتؤمن به تصغر أمامها الدنيا كلها وتتجلى ضآلتها — والانسان — جنب القدرة الإلهية ويتضح لها أن الامثال هو ابده الواجبات . لذلك يكون هوى الانسان تبعاً لإيمانه . وتخضع تصرفاته جميعاً للدين . وتكون المسؤولية حارساً أميناً على الأفعال . ومعنى مائلا في الأذهان ولا سيما عند ما يغلو الانسان إلى نفسه . وتنعدم الرقابة . وتقوى المغريات ويشد زرع الشيطان ووسوسته .

ولا يضعف من أهمية هذه المسؤولية أن الدار الآخرة هي ساحة الحكم وأن عالم ما بعد الموت هو حين الفصل لأن مناط الحكم هو التصرفات

الدينية ولأن الدنيا مزرعة الآخرة والوسيلة إليها . على أن الإسلام لم يقصر
المسئولية على الحياة الآخرة كعوض الأديان . كما سنرى .

وقد صور القرآن المسئولية فأحسن تصويرها وأبرزها وبينها بما لا يدع
بياناً لكتاب أو مقالا لقائل . وأحاط بأسبابها ونواحيها وألم بجملتها وتفصيلها
وراعى في كل ذلك مقتضيات تدق على الأذهان وتخفى على العقول ويدرك
منها البحث كلما تقدم طرفاً بعد طرف ، وأثراً بعد أثر ، فلا يملك الانسان إلا
أن يهتف من أعماقه « تبارك الله أحسن الخالقين » .

أجل . إن المسئولية في القرآن صفحة رائعة يحق لعلماء القانون والاجتماع
والنفس أن يعكفوا عليها ، ويفخروا بها ، ويقبسوا منها ما يضيء لهم مسالك
بحرهم للتشعبة وتجنبهم مزلقه الشائكة ويسمو بها فوق أهواء النفوس
وضعف البشر . وقصور الانسان .

قرر القرآن المبادئ الأساسية في المسئولية ووضح كل مبدأ في عدة آيات
وصوره من نواح مختلفة وكرر ذلك حتى لا تلبس في الأذهان ، أو تخطئه
العقول ، أو يفتات عليه أحد بتأويل مغرض أو يحتج إنسان بغموض تعالى
عنه القرآن العظيم .

وجود المسئولية وتوكيدها

قرر القرآن بادىء بدء وجود المسئولية بشكل قاطع لا ريب فيه فقال
« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعين » « أخسبتم إنما خلقناكم

عبثاً ، وانكم إلينا لا ترجعون » « لا يسأل عما يفعل . وهم يسألون »
 « كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون »
 « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل
 للذين كفروا من النار » « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال
 فأبين أن يحملنها . وأشفقن منها . وحملها الإنسان انه كان ظلوماً جهولاً »
 « وقفوهم إنهم مسئولون » « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ،
 ذلك ظن الذين ظلموا فويل للذين كفروا من النار » « أيحسب الإنسان أن
 يترك سدى ؟ » « وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى وان إلى
 ربك المنتهى » « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم
 يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون »
 « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله واستردون إلى عالم الغيب والشهادة
 فينبئكم بما كنتم تعملون » « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن
 عملاً » « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم »
 « اليوم تجزى كل نفس ما كسبت . لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب »
 « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » « كل نفس بما كسبت
 رهينة » « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها .
 وقد خاب من دساها » « فو ربك لننسلنهم أجمعين عما كانوا يعملون »
 « وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » « وكل شيء
 أحصيناه كتاباً » « نحن نحي ونميت ونكتب ما قدموا . وآثارهم وكل
 شيء أحصيناه في إمام مبين » « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا
 نستنسخ ما كنتم تعملون » .

وعاب القرآن على الذين يعيشون هملاً . ويحيون سدى . ويأتون أعمالهم

عبثاً . ويظنون إنما هي الحياة الدنيا « إن الذين لا يرجون لقاءنا . ورضوا بالحياة الدنيا وأطمأنوا إليها . والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا . وما نحن بمبعوثين » « إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين » « قد خسر الدين لذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها . وهم يجمعون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون » « أنهم كانوا لا يرجون حساباً » « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة . قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب والشهادة لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

مدى سمول المسئولية

وقرر القرآن أن هذه المسئولية تشمل الأعمال . . . والأقوال وما توسوس به النفوس . كبيرها وصغيرها . جليلها وحقيقها . « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » « وكل صغير وكبير مستطر » . وهو لكي يبرز فكرة الضالة والصغير يضرب المثل بكلمة « ذرة » ، « أو مثقال ذرة » أو مثقال حبة من خردل « ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، وإينا يكون هذا المثقال الضئيل ، في صخرة صماء أو في أثير السماء ، أو في طبقات الأرض المتكاثفة يأت به الله ، « يابى أنها إن تكن مثقال حبة

من خردل ، فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ،
 إن الله لطيف خبير » « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » « وما من
 غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين » .

فالإنسان مسئول عن ألفاظه وأقواله « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب
 عتيد » « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل
 وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله »
 « أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى . ورسلنا لديهم يكتبون »
 « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض . وما يكون من نجوى
 ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر
 إلا هو معهم أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شيء
 عليم » .

وهو مسئول عن الأيمان ، وما يبذل من وعد أو قسم « لا يؤاخذكم
 الله باللغو في إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشرة
 مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد
 فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتم . . . » .

وهو مسئول عن السمع ، والبصر « ولا تقف ما ليس لك به علم
 إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » « ولا تمدن عينيك
 إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك
 خير وأبقى » « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون
 وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا . ولا تطع من أغفلنا قلبه
 عن ذكرنا واتبع هواه . وكان أمره فرطاً » .

والأموال والأولاد والأزواج فتنة ومسئولية . « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم . وإن تعفوا وتصفحوا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » « يا أيها الذين آمنوا لا تلهم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

فالصغر والخفاء والتفاهة وغير ذلك من صفات الضلالة وبواعث التهور لا تحول دون السؤال والحساب إن خيراً خيراً وإن شراً شراً . فإذا كان في ذلك معنى من معاني التحكم الشامل والرقابة التي قد لا تفلت شاردة ولا واردة فليس في ذلك ما يبعث على الشكوى أو يخالف جادة العدل ، بل والحرية أيضاً لعدة أسباب . منها أن الله عز وجل إذا كان يعاقب على الصغيرة فإنه يكافئ عليها أيضاً . . . وهو يحزل العطاء ويسخ الرحمة . ومنها أن مسؤولية ما توسوس به النفوس . . . وما تمكته القلوب أقرب إلى التهذيب وكمال الخلق والنفس منها إلى العقاب والجزاء والتقصاص لذلك جعل مردها إلى الله وليس إلى الناس فلا يحاسب إنسان أمام أمير . . . أو يقدم إلى المحاكمة على نية دون تنفيذ أو فكرة عارضة . . . وفي هذا الجمع بين تهذيب النفس وبين الحيلولة دون استغلال السلطات استغلالاً مسرفاً ، ومنها أن الإنسان إذا استهان بالصغائر تراكت عليه حتى تصير سدوداً ، وقويت حتى تصبح قيوداً ، ويؤتى منها دون أن يتخذ عدة أو يجهز دفاعاً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع « إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم . ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم . . » وكل خير بالنفس

الإنسانية يعلم أنها طلعة ، وأنها تستزيد من فعل ما يباح لها ، وتضاعف ما تلس فيه لذة . . فالاستهانة بالصغار هي باب الشر الأعظم يتردى بسببها من الناس أكثر مما يتردى بسبب كبار الموبقات . .

ومما يتعلق بشمول المسؤولية ، أن القرآن الكريم قد وضع ، في آيات لا عداد لها — أن الكون كله من أصغر ذرة حتى أكبر نجم ، ومن الهوام حتى الإنسان ، والملائكة منظم تنظيماً وثيقاً . وإن كل شيء منها له نصيبه المعلوم وعمله المخصوص به ، والناتج إليه ، والذي لا يجوز له أن يهمل فيه أو يتخلف عنه » وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . وكل في فلك يسبحون . « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . « ويسبح الرعد بحمده . والملائكة من خيفته . « ألم تر أن الله يولج الليل في النهار . ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . « تسبح له السموات السبع والأرضين ومن فيهن . وإن من شيء إلا يسبح بحمده . ولكن لا يفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً . « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون . « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين . « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً . « والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره .

ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . « وما من دابة إلا هو آخذ
بناصيتها » .

فهنا مسؤولية وظيفية ، اجتماعية بالنسبة للإنسان وكونية بالنسبة لغيره ،
وهي تقوم على أساس أداء الوظيفة ، الأداء الواجب . ويسأل الفرد الإنسانى
فيها لا بصفته الشخصية أو الخاصة . وإنما بصفته الوظيفية فهو مسؤول كأب ،
وزوج ، ومسؤول عن دوره في العمل والقادة مسؤولون عن شعوبهم ،
والشعوب مسؤولة عن قادتهم ، والمؤاخذه في كل هذه الحالات تقوم على
الأساس الوظيفي للأفراد ، وما مسؤولية القادة والشعوب — التي تدور عليها
هذه الرسالة — إلا باباً من هذا القسم من المسؤولية .

— ٤ —

المسؤولية واقعة على المسؤول ومعه

ومن المبادئ الأساسية التي يقررها القرآن في المسؤولية ويذمها غيره
من الأديان والتشريعات قصر المسؤولية على المسؤول وحده . وعدم إشراك آله
فيما اقترفت يده . ولعلم الله عز وجل بما فطر عليه الناس ، من سهولة
الانزلاق في مزالق الطغيان ، فإنه كرر هذا المعنى ، وأبرزه كاملاً في كثير من
الآيات « تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت . ولكم ما كسبتم ولا تسألون
عما كانوا يعملون » . « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون »
« قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم » .
« ولا تزر وازرة وزر أخرى وأن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء .
ولو كان ذا قربى . . » . « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . ومن ضل فإنا
يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » .

«.. ألا تزر وازرة وزر أخرى». «ولا تكسب كل نفس إلا عليها. ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبشكم بما كنتم فيه تختلفون». «قل لا تسئلون عما أجرمنا. ولا نسئلك عما تعملون».

وإذا قارنا التشريع القرآني بالتشريعات الأخرى وضحت لنا عدالته وانصافه. فهذه التشريعات كانت تشرك في المسؤولية أقرباء المذنب. «فالقانون الصيني القديم يعاقب المجرم في حالة الخيانة الوطنية.. وجميع أقربائه من الدرجة الأولى» ويعني بهم القانون الآباء والأمهات والأجداد والجدات والأولاد وأولاد الأولاد والأعمام وأولاد الأعمام والعات وأولاد العات» سواء في ذلك ذكورهم وإناثهم كبارهم وصغيرهم «(حتى الرضيع منهم وحديث العهد بالولادة) الأصحاء منهم وذو العاهات الطبيعية أو الطارئة. وسواء أكانوا يعيشون مع المجرم في منزل واحد أم كانوا يعيشون في عدة منازل ويعاقب كذلك من أقربائه الآخرين (أى غير أقرباء الطبقة الأولى السابق ذكرهم) الذكور البالغون ستين عاماً فصاعداً إذا كانوا يعيشون معه في منزل واحد وقت ارتكاب الجريمة. مهما كانت صلة قرابتهم به بعيدة وسواء في ذلك قرابة النسب، وقرابة المصاهرة! فأما المجرم نفسه فيقطع جسمه إرباً إرباً وتصادر أملاكه لمصلحة الدولة. أما أقرباؤه من الدرجة الأولى فيحكم بالقتل على ذكورهم البالغين ستين سنة فصاعداً. وبالرق على جميع إناثهم وعلى ذكورهم الذين لم يبلغوا بعد سن الستين. وتوقع كذلك عقوبة الخصى «زيادة على عقوبة الرق» على صغار ذكورهم الذين بلغوا السادسة فإن كانوا لم يبلغوا السادسة سجنوا حتى يبلغوا سن الحادية عشرة ثم توقع عليهم هذه العقوبة!

«والشريعة اليونانية القديمة تقدر كذلك العقوبات الجمعية في جريمتين

الحياة العظمى و انتهاك حرمة الأشياء المقدسة فتقضى في هاتين الحالتين بالاعدام على المجرم نفسه وعلى جميع أفراد أسرته « وهم عصبته أى أقرباؤه من ناحية الذكور » لا فرق في ذلك بين صغارهم وكبارهم ذكورهم وإناثهم ، أمحائهم ومرضاهم . عقلائهم ومجانينهم . وتقضى بعد تنفيذ حكم الاعدام على جثثهم نفسها بالحرمان من الدفن والطقوس الدينية وبنبذها في خارج حدود البلاد . ولم تكن هذه المسؤولية مقصورة على الأحياء من أقرباء المجرم ، بل كانت تشمل كذلك الأموات منهم فكانت تنبش قبورهم ويقذف برفاتهم في خارج الحدود . وكانت تمتد فوق هذا وذاك إلى جميع ما تملكه الأسرة من حيوان وأموال ومنازل ومتاع فتباد هذه الممتلكات أو تحرق أو تدمر أو تصادر .

« وأما الشرائع التى كان يسير عليها الرومان فى عصورهم المسيحية فقد أقرت هذه المسؤولية [المسؤولية الجمعية] فى مظاهرها التى تنال الأنفس والحريات . وفى مظاهرها التى تنال الأموال . وإليك مثالا القانون الذى أصدره سنة ٣٩٧ بعد الميلاد الإمبراطور أركاديوس إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية [٣٩٥ — ٤٠٨] بصدد جريمة الخيانة الوطنية واحتفظ به الإمبراطور جستنيان نفسه [٥٢٧ — ٥٦٥] فقد قرر هذا القانون « أن العدالة المطلقة تقضى أن يصيب أبناء المقترب الخيانة الوطنية العقاب نفسه الذى يصيب والدهم ! ولكن الإمبراطور — لما له من سلطة مطلقة — يرى الإبقاء على حياتهم على أن يحرموا الميراث والملك ويحال بينهم بين مواطن الشرف ومظانه ولا يسمح لهم بالاشتراك فى الطقوس الدينية . وهكذا يعيشون عيشة المنبوذين فى فقر مدقع ، وبؤس مقيم » .

« وقد أقر كثير من الأمم الأوروبية عدة مظاهر من المسؤولية الجمعية

طوال العصور الوسطى وفي أثناء مرحلة كبيرة من العصور الحديثة فشرائع الانجليز السكسونية السابقة لعهد الكانوت كانت تبيح أن يباع الأولاد يبيع الأرقاء لاستيفاء ما يحكم به على آبائهم من غرامات مالية في بعض الجرائم . وشرائعهم اللاحقة لهذا العهد كانت تأخذ الأولاد ببعض جرائم آبائهم فكان أولاد المحكوم عليه بالحرمان من حماية القانون يجردون أيضاً من هذه الحماية . وقد أدخل ادوارد الثالث ملك الانجليز السكسون [١٠٤٢ — ١٠٦٦] تعديلاً يسيراً على هذا القانون بدون أن يمس جوهره فقرر أن هذا الحكم لا يسرى إلا على من يولد للمجرم بعد توقيع هذه العقوبة عليه . . . بينما يعفى منه من ولد له قبل ذلك » (١) .

وقد صور العهد القديم نوعاً خشناً بدائياً من المسؤولية الجمية . . عند ما افترى المحرفون له على الله عز وجل الكذب فوصفوا إله موسى بأنه إله غيور يفقد ذنوب الآباء في الجيل الثالث من الأبناء !

لا جرم أن هذه الصور من العدوان والظلم وأخذ البريء بجريمة المذنب . . وإجراء ذلك باسم العدالة [المطلقة !!] ليصور لنا كيف أن القرآن كان ظهيراً للشعوب على الحاكمين ونصيراً للمظلومين على الطاغين ومقيماً لشرعة العدالة الحقة . . العدالة الموضوعية المطلقة . . لا العدالة المفرضة ولا العدالة الضيقة المزيفة . ولا العدالة من وجهة نظر جستيان وأدوار . . وغيرها من الحكم . . ولا العدالة المشوبة بتقاليد الوضع الاجتماعي المتأثرة بوحى التمايز الطبقي . . وهذا التجرد من التفرقة بين الناس . . والتسامي فوق الأغراض هو في نظرنا ألمع معاني صفة « السهوية » التي للأديان وأبرز عوامل أفضليتها على الشرائع الوضعية .

(١) صفحات ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ المسؤولية والجزاء للدكتور علي عبد الواحد وافي بتصرف .

نظام المسئولية والجزاء

ومما يتعلق بهذه الناحية من المسئولية بسبب وثيق أن القرآن ، ليس
خسب أوقع المسئولية على المسئول وحده وإنما حدد أيضاً ، الجزاء بقدر
المسئولية مع ميل ملحوظ إلى مضاعفة الحسنة . . وإيثار الرحمة . وتفضيل
العفو والسماحة « من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا
يجزى إلا مثلاً ، وهم لا يظلمون » « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها
ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ،
ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا
ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على
القوم الكافرين » « من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا
يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » « وجزاء سيئة سيئة مثلها
فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين » .

وجعل العدل . . والعدل وحده الروح التي تصدر عنه أحكام الجزاء .
وحذر أن يؤثر على هذا العدل أى مؤثر ولو كان الشئ . أو الكفر أو
الحالة الاجتماعية من فقر أو غنى أو التحيز للنفس أو ذوى القربى أو غير
ذلك من المؤثرات والموغرات والغريات فقال : « يا أيها الذين آمنوا كونوا
قوامين بالقيسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن
غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » « ولا يجرمنكم
شئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم » وهذه الآيات مثال رائع لطلب العدالة الموضوعية . ودليل ناصع على أن القرآن لم ينظر إلى الحياة من وجهة النظر العقيدية الضيقة ، وإن عدالته تسع البشرية أجمع ، عربها وعجمها ، فقيرها وغنيها ، مسلمها وكافرها .

ولكى يقرب القرآن فكرة العدالة إلى أذهان الناس نراه — في كثير من السور — يمثلها بالميزان ذلك الميزان الذى جعله من أركان رسالة الأنبياء « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات . وأزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » « والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » وفي هذا الميزان توضع المسؤولية في كفة ، والجزاء في الثانية « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون » « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

الاعتراف لا يعد مبرراً للإعفاء من المسؤولية

وأشار القرآن في كثير من السور إلى هذه الحالات التى يغرى فيها الحليف حليفه ، ويفسد القرن قرينه ويهون الأشرار من الناس على البراء والغافلين تحمل الشر ، واقتراف المنكرات . فأوجب عقابهم جزاء غشهم ، وقضاء خداعهم « قال قائل منهم إني كان لى قرين يقول أأنك لمن المصدقين .

أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمدينون . قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه في سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتزدين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين » « وقيضنا لهم قرناء فزيناوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والأنس إنهم كانوا خاسرين » « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم . ألا ساء ما يزرون » .

ولكنه لا يعد إغراءهم موجباً لإعفاء المستجيبين له من المسؤولية لأن القرآن يؤمن بأهلية الإنسان لتحمل المسؤولية وقدرته الطبيعية على أن يميز بحض فطرته أولاً — ثم برسالة الأنبياء ثانياً — بين الخير والشر ، الحسن والقيح ، « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دساها » « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى . وكان الشيطان للإنسان خذولاً » « قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد » « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » « فأغويناكم إنا كنا غاوين : فإنهم يؤمئذ فى العذاب مشتركون » . « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء وإنهم لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون » .

وعلى أن القرآن قد صور طاقة الشر العظيمة . وقوة الإغراء ممثلاً لها فى الشيطان ، ووعيده . . . « قال رب بما أغويتنى لأزیننن لهم فى الأرض

ولأغوينهم أجمعين » « قال أرئيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتسكن ذريته إلا قليلا قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً واستغفرز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد ، وعدمهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » .

« قال فما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمالمهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » .

تقول : على هذا التصوير البارع لقوة الإغواء . وقدرة الإغراء وهيمنة الشيطان ، فإن القرآن في آخر كل آية من هذه الآيات يؤكد شيئاً آخر لا يقل قوة بل يزيد على قوة الشر . وقدرة الشيطان . ذلك هو قوة الإيمان . وأن الشيطان إنما يغلب من يتولاه من الناس ويستضعف له . « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من العاوين » . « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » . « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلاً » .

ويصور القرآن خاتمة هذا الصراع بما يكون دائماً أثر كل استسلام من تملص المحرض من كل مسئولية . وتركه المستسلم يقاسى مغبة غفلته . وعاقبة استسلامه . ويتذوق هذا الذى زينه له الشيطان فتاق إليه ورغب فيه . فإذا هو سراب . « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم . وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم . ما أنا بمصرخكم وما أتم بمصرخى » .

« كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين » . « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك . فآلقوا اليهم القول إنكم لكاذبون » « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين أتبعوا . ورأوا العذاب . وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم . وما هم بخارجين من النار » .

إعفاء السرور واخطأ

والقرآن مع ذلك يتسامح مع كل مخطيء . ينجح للتوبة . ويقطع عن العصية . ويعترف بذنبه . وهو كذلك يصفح عن المضطر . ويعفو عن الناسي والساهى وشقى ضروب الخطأ غير المتعمد « ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به . ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً » . « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا . إن ربك من بعدها لغفور رحيم » . « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » « وهو الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات . ويعلم ما تفعلون » .

« قد فصل لكم ما حرم عليكم ، إلا ما اضطررتم إليه » « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظالموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله . ولم يصروا على ما فعلوا . وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنت تجري

من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه . إن الله غفور رحيم » « فمن اضطر في شخصه غير متجاف لإثم فإن الله غفور رحيم » « لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان » « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا . فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة . إنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » .

فإذا حان الأجل ، وصعدت الروح فقد قفل باب التوبة . وحق العقاب ، وبطل الاستعتاب ، وليس ما هو أدق من ذلك في إحكام المسؤولية ، لأنه بعد المسامحات الكثيرة الماضية المبنية على رحمة الله لعباده ، وإفساحه لهم مجال العمل ، أو حق التوبة ، والاعتذار ، لا يكون هناك مجال لمسامحه مصر مكابر وإلا لم يتميز المحسن عن السيئ بل وبطلت المسؤولية . وهدمت من أساسها ومن أجل هذا كرر القرآن هذا المعنى تكريراً . وصوره بأسلوب يرق له الجماد ووصل بالأعذار إلى غاية ما بعدها غاية .

« ويوم نبعث من كل أمة رسولا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون » « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل » « فإن يصبروا فالنار مثوى لهم . وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين » « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده . وخسر هنالك الكافرون » « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن

الساخرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ، بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » « وهم يصرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر . وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب أرجعوني لعلني أعمل صالحاً فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به . أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب . فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن . ولا الذين يموتون وهم كفار . أولئك أعدتنا لهم عذاباً أليماً » « ولو ترى إذا وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون » . « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » .

هذه هي بعض الخطوط الأساسية التي رسمها القرآن الكريم ليحدد معالم المسؤولية . ومنها يتبين لنا مدى روعتها وكبرها . وما تزخر به من حيوية وإيجاب فتحن نرى فيها الإنسان مخلوقاً مسئولاً لإتمام المسؤولية : الرسالات السماوية والفترة الحيرة عن يمينه . والشيطان وإغراء الشر عن يساره . وما يفعل من حسنة تكتب له وتضاعف . وما يفعل من سيئة تكتب له دون

زيادة . ومسئوليته من خير وشر واقعة عليه وحده . وباب التوبة مفتوح له
ما بقيت الحياة . وهو غير مسئول عن أعمال الغير . غير مستعقب إذا اعتذر
بلاغراء . مسامح إذا كانت السيئة عن سهو أو نسيان أو خطأ غير متعمد .
أو بارغام لا طاقة له بدفعه . وفي جميع الحالات يكون العدل هو الجزاء الذي
يوفي يوم القيامة مع إشار ملحوظ للرحمة والسماحة .

الباب الثاني

مسئولية القادة عن الانحلال

« أى مسخ دمى من المسوخ والوحوش يفعل فعل القائد البشرى ؟ إن أسد الصحراء . واخطبوط الماء ، ودب الجليد أنبل نفساً وأرحم ناباً ومخلباً من القائد العسكرى الذى يزجى الفياقلى الإنسانية نحو الهلاك المحقق . ويجعل من آلاف الأجساد غرضاً للرماح والسيوف ودرثية للقنابل والمدافع ، وهى أعف يداً ، وأطهر قلباً من السياسى المحنك الذى يسخر الذكاء والدهاء فى خدمة ملك من الملوك أو أمير من الأمراء . فيقنن القوانين ، ويركز الأوضاع بحيث تستقل الشعوب والجماعات وتحتبس فى قيودها كما تحتبس الطيور فى الأقفاص » .

القادة والقيادة قديماً وحديثاً

كانت القيادة — وما زالت — مسألة شديدة الأهمية ، بالغة الخطورة ، تحتل من الكتاب والمؤرخين أعظم جانب من الاهتمام ، وتتوثر في مصائر الأمم والشعوب تأثيراً كبيراً وقد نسب طائفة من المؤرخين والفلاسفة مثل كارليل ونيتش وهيجيل وبقية الفلاسفة الذين يقدسون الدولة بصفة عامة إلى القادة والزعماء الدور الأول في التاريخ بينما مالت بعض الدراسات الحديثة إلى الاتقاص من هذا الأثر ، ومنح الأولوية لعوامل أخرى . كالعوامل الاقتصادية كما في النظرية الماركسية . لذلك وجب علينا أن نتناول الموضوع بمزيد من العناية وكثير من التفصيل .

إن أول الحقائق التي تبدهنا في هذا الموضوع هو أن القيادة ضرورة اجتماعية لازمة . وليس عنها مناص . فحب السيطرة غريزة — أو تكاد — مغروسة في نفوس كثير من الناس ، مهما كانت ألوان هذه السيطرة رئاسة أو شهرة أو غنى أو قيادة حربية أو إصلاح الخ ... وهذه الغريزة من القوة والمهيمنة على نفوس أصحابها بحيث تجعلهم يخضعون حياتهم ، بل يخصصونها لها ...

ومن ناحية أخرى ، فإن تكوين المجتمع يتطلب أن يكون هناك راسة كما هو مفهوم بالبدهة فلو لم تكن الرئاسة وظيفة محبوبة ، مشتهة ، لكان يجب إرغام بعض الناس عليها ، حتى يقوموا بتحقتها ، كما كان يحدث قديماً في منصب القضاء ، إذ من المستحيل أن تتكون الجماعات ثم لا تكون هناك قيادة تتولى الإشراف والتنظيم ، ومن المشاهد أن قطيع الحيوان أو سرب الطيور

له قائده الذى يكون عادة من أكبرها سناً ، أو أقواها جسماً ، وهى مؤهلات سليمة للرياسة حتى فى المجتمع الإنسانى .

فهاتان الضرورتان ، لزوم القيادة المتأنى من طبيعة الاجتماع ، ووجود غريزة السيطرة والرئاسة فى نفوس كثير من الأفراد ، جعلتا القيادة ضرورة لازمة لا مفر منها .

ويترب على هذه الحقيقة حقيقة أخرى . هى أن القيادة كانت دائماً تتمثل فى عدة أفراد ، أو طبقة ضئيلة العدد إذا قيست بالطبقات المحكومة . إذ أن طبيعة القيادة لا تتطلب الكثرة بل الكثرة تفسدها . بل لعل الإزدواج والثنائية — وهى أقل مراتب الكثرة — يفسدها — على حد قول المثل الشعبى « ريسين فى المركب تفرق » فإذا كانت طبيعة القيادة نفسها تتطلب الانفراد والاستئثار . فإن صدورها عن وازع حب السيطرة يؤكد هذا المعنى ويدعمه . لأن الذى يريد السيطرة يضيق بأى معنى من معانى المشاركة والمساواة .

وشواهد التاريخ توضح لنا أن القيادة كانت دائماً محصورة فى أيد قليلة العدد ، أو أسرات معدودة . وما نظن أننا بحاجة إلى أن ننش صفحات التاريخ القديم لنثبت ذلك . فإن تاريخ مصر القديمة والقيصرية الرومانية والعائلات المالكة مثل « هابسبرج » و « هوهولزن » يغنيا عن ذلك فضلاً عن أن امبراطورية كبرى — هى اليابان — لا تزال حتى الآن فى يدى أسرة يعود تاريخها إلى ما قبل الميلاد .

حقاً إن العصر الحديث قد أعلا صوت رجل الشارع وأبرز الجماهير . واسهم لها فى الحكم ، وهذا صحيح من الوجهة النسبية أى بمقارنته بالحكم فى

العهود القديمة أما أن يقال إن الشعوب هي التي تحكم . أو أن نظاماً يعينه يحقق « حكومة الشعب ، بالشعب ، وللشعب » كما يقول لنكولن عن الديمقراطية فهذا ما لا يمكن قبوله ، لأنه مستحيل استحالة مادية . وقد وضع ذلك برنارد شو في مقدمة مسرحيته السياسية « عربة التفاح » فقال « إن الشعب لا يستطيع الحكم . إذ يستحيل على كل فرد أن يكون حاكماً ، كما يستحيل على كل فتى أن يكون سواقاً لقاطرة بخارية أو أن يكون رئيساً للصمصام البحر . وليس في وسع أمة أن يكون جميع أفرادها رؤساء وزراء أو دكتاتوريين . كما لا يمكن وجود جيش كله قادة أكفاء . وإن حكومة بواسطة الشعب لم تتحقق يوماً ما ، ولا يمكن تحقيقها . وما هذا إلا صراخ من زعماء الشعب لكي نصوت لهم في الانتخابات وإذا شككتكم في ذلك وسألتوني « ولم لايسن الشعب قوانينه » سألتكم « ولم لا يكتب الشعب مسرحياته ؟ » فلعمرى أنه لا يستطيع ذلك . مع أن تأليف المسرحيات الجيدة أسهل من سن القوانين الصالحة . وليس هناك مائة رجل في العالم يستطيعون تأليف مسرحية جيدة تستطيع البقاء مدة طويلة كما يجب أن تبقى القوانين » .

والطريقة التي اهتدت إليها الديمقراطية لتفادي هذا المستحيل المادي — حكم الشعب نفسه بنفسه — وبين الجمع به — أو التظاهر بذلك على الأقل — جاءت عن فكرة الإنابة . ولكن حتى هذه لا تمثل قط ، لا مجموع الشعب ، ولا أى واحد منه — اللهم إلا النواب أنفسهم . وذلك بمقتضى طريقة عملهم التي لا يرجعون فيها إلى ناخبهم ، وبمقتضى القاعدة الدستورية التي انتخبوا على أساسها وهي ان كل واحد منهم ، لا يمثل دائرته ، وإنما يمثل الوطن ومن أجل هذا فهو غير مقيد بأى الزام قبل ناخبه ! وهم لا يرجعون إلى هؤلاء الناخبين إلا مرة كل عدة سنوات ، ليقيموا تلك المؤامرة المتفق

عليها ، الانتخابات ، ومع أن عددهم قليل قلة لا تتناسب مع الكثرة الطاغية للمحكومين فإن مرد النواب والشيوخ إلى زعماء حزب الأغلبية وهؤلاء عادة أفراد قلائل . وأمر هؤلاء إلى الوزارة التي تمثل خلاصتهم المختارة . والوزارة الدستورية مرتبطة برئيسها ، عائدة إليه في أمرها ونهيها ، حلها وربطها وهو يستطيع أن يقلل من أعضائها من يشاء أو يعين فيها من يريد ، فالبناء الديمقراطي — رغم مظهره الشعبي — كالبناء الفاشي ، يؤول أخيراً إلى حكم الأفراد .

وقد لاحظ أحد فلاسفة الحكم في العصر الحديث « روبرت ميشل » أنه « حتى إذا صح أن الأمم قد انتخبت وكلاءها بمحض اختيارها (١) . فليس بالصحيح أن السيادة تبقى بعد ذلك في أيها لأن وكلاءها يستطيعون أن يوجهوها من حين إلى حين وهي لا تستطيع توجيههم في كل حين . والجماعة بطبيعتها كسلى لا تتزعزع من نفسها القوة على الإنشاء والابتداء في جميع الظروف .

ولهذا يحدث دائماً في النادي الصغير — كما يحدث في الجماعة الكبيرة — أن يبحث المجتمعون عن رئيس يكون إليه تصريف الأعمال الضرورية لبقاء النادي والجماعة .

والذي جرت به العادة في هذه الأحوال أن يظفر بالانتخاب من يفرغ للعمل ويحرص عليه . ويدأب على طلبه . وقد يقع عليه تفضيل أصحابه وزملائه للسبب وتفضيه . فيفضلونه لاتقاء بأمنه كما يفضلونه لأنهم من جانبه واطمئنانهم إلى سلامته . ويفضلونه لرجحانه ، كما يفضلونه لقلة منافسته وقلة منافسيه .

(١) فلاسفة الحكم في العصر الحديث للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٩٤ و ٩٥

ويندر أن تكون هذه الصفات أكرم الصفات التي تصلح عليها رئاسة الرؤساء .
 « وقد لاحظ أن الرئيس يبقى في رئاسته متى وصل إليها فيعيد الأعضاء
 إنتخابه كسلا من عنت البحث والاختيار وفرض المنازعات وإغضاب هذا
 لإرضاء ذاك ، أو يعاد انتخابه لما اتخذه هو من الحيلة وتذرع به من الذرائع
 التي تخيل إليهم أنه عامل مهم لا غنى عن عمله ! أو أن التجديد أسلم على الأقل
 من ابتداء التجربة من جديد .

« يجرى هذا في الانتخاب لرئاسة الأندية والجماعات القليلة التي من قبيلها .
 ويجرى مثله على التقريب في انتخاب الرئيس للهيئات السياسية والأحزاب
 الكبيرة التي تتناوب الحكم مع غيرها أو تنفرد به فترة طويلة بغير مزاحمة .
 ففي ظفر الرئيس بالرئاسة جعل همه الأول أن يحيط نفسه ببطانة من أخصائه
 يبقون ببقائه ويذهبون بذهابه . فيشرف معهم على خزانة الهيئة وجدول
 الانتساب إليها . ومجلس تأديبها وأداة نشر الدعوة لها والحكوماتها ، وبهذا
 يأمن المزاحمة ويتيسر له أن يقضى عليها في مهدها . لأنه يملك أسباب
 التخلص من المزاحم قبل أن ينجح هذا في تأليب القوى للتخلص من رئاسته .
 « ومتى توطد مكان الرئيس وبطانته على هذا النحو ، ففي وسعه أن يفرض
 مرشحيه للمجالس النيابية على الحزب كله قبل إعلان ترشيحهم للناخبين .
 فإذا هم مرشحو رئيس واحد تؤيده بطانته ولا تأمن أن تشق عصا الطاعة .
 وأسمهم أمام الناخبين « مرشحو الحزب ، ونواب الأمة » ..!

« والأستاذ ميشيل شديد الثقة بنظرياته هذه حتى ليرتقى بها إلى درجة
 القانون . — بل والقانون الحديدي — الذي لا فكاك من حلقاته المقفلة . ويسميه
 « القانون الحديدي لولاية الخاصة » The Iron Law of Oligarchy
 فلا يتأتى حكم في البلاد الديمقراطية أو في سواها بغير فئة خاصة توافق زمانها

فمن فئة الفرسان إلى فئة النبلاء إلى فئة أصحاب الأموال إلى فئة الخبراء والصناع . إلى فئات من قبيلها يبرزها كل حكم على مقتضى الزمن بغير خلاف في جوهر القانون . وهو أن الجماهير تسلم مقادها لآحاد معدودين .

ويوافقه على هذا المذهب الموسيوجايتانوموسكا العالم السياسي الإيطالي الذي يرى أنه « مهما يكن نوع الحكومة وفي أى بلد تحكم . وبأى عنوان تشتهر . فالظاهرة المتكررة دائماً في جميع الدول هي أن الحكم مهمة تنحصر في أيدي قليلة جداً بالنسبة إلى الجمهور المحكوم .

هذه هي الظاهرة التي تتكرر في جميع الدول . وستظل كما يعتقد موسكا متكررة إلى آخر الزمان لأنها ثبتت بالتجربة والاستقرار وبالاحتمال الممكن دون غيره عند تقليب المسألة على جميع الوجوه .

ولا فرق في هذه الظاهرة بين حكومة الدكتاتور وحكومات الأمم النيابية التي يعم فيها حق الانتخاب إلى أوسع حدود التعميم ^(١) » .

وهذا هو التفسير الوحيد لما نلمسه من تخطيط وأخطاء في الأساليب السياسية وبعد عن رغبات الشعوب ومجافة آمالها . فما من شعب واحد يحب الحرب أو يجد القتل أو يطرب لدخول المجزرة ، ومع ذلك فلم تكن الحروب أشد هولاً وبشاعة وشمولاً للعالم . وطحناً للشعوب والآمنين من النساء والأطفال ، مما هي عليه في حكم الشعوب المزعوم ، وما من شعب واحد ، لو ترك وشأنه يقبل أن يدفع ضريبة الاستعمار الفادحة أو يتعرض لمصيره الرهيب ومع ، ذلك فإن المزارع الهولندي يقتل في أندونيسيا ، والبورجوازي الفرنسي يحارب في الصين ، والعامل الأمريكي يقاتل في

كوريا ، والانجليزى البارد يتلظى تحت أشعة شمس الاستواء النارية ...
وأعجب من ذلك أن الجماهير قلما تستطيع فكاً كاً من ذلك . لأنها قد أوهمت
داخل هذه البلاد — كما أوهمت الشعوب الأخرى خارجها — أنها إنما تحكم
باسم شعوبها ، وأن قادتها إنما يمثلونهم ويصدرون عن آرائهم ، وجاز عليهم
جميعاً هذا الوهم أن الوسائل التى أوجدتها الشعوب لتدافع بها عن نفسها ،
ولتعلّى كلمتها تخونها وتنقلب عليها ، وتسغل ضدها ، وتكون ظهيرة للقادة
لأهلها . فقد لا يكون هناك أكثر شعبية من تلك القوة العظيمة التى يسمونها
الرأى العام . ومع ذلك فما هو مرد الرأى العام ؟ إنه يعود ، كالتمثيل النبى
— وأقل — إلى أفراد معدودين يهيمنون عليه عن طريق الصحافة والسينما
والدعاية ويسرونه لمصالحهم . وهم يحاربون الوزارات — عادة — لأنها
تحول بينهم وبين الحكم والمصالح فإذا تنحت اقتعدوا مجلسها وتابعوا سياستها
وحذو حذوها ، بينما تنكص الوزارة القديمة ، وتتملص مما كانت تفعله ،
وتعيب على الوزارة الجديدة ما كانت تأتبه هى !

وهكذا نرى أن هذه القوة — أشد القوى شعبية وأكثرها مساساً بوقائع
الأمر وملساً لحالة الشعب — تنقلب عليه وتؤثر فيه لمصلحة القادة ، وتنال
من مناعته ، والشعوب فى حيرتها ، كالشاعر القديم .

إذا فضائلى اللأئى أدل بها كانت عيوباً ، فقل لى كيف اعتذر!

وكما يتقدم العصر ، وتتعمد الحضارة وتتعدد شئون الحياة ، ووسائل
المعيشة ، ويسرف الناس فيها وتطلق الحريات والأهواء ، كلما تزد أهمية
القيادة وتتضاعف منزلتها وتثقل مسؤوليتها ، وكما تتعدد أيضاً الوسائل التى
تحكم بها ، ويكثر عدد الأتباع والمؤمنين فكل من الكاتب والصحفى والمذيع
والممثل السينمائى فى هذا العصر يستطيع أن يسمع صوته ويبت فكرته ، ويلحن

بحجته أكثر أضعافاً مضاعفة مما كان يستطيعه الداعية القديم . ونحن نسمع عن زعماء هم في الواقع ، وكما يعلم الجمهور ، أوساط من الناس ، غير موهوبين أو مميزين بعبقريّة خاصة ، وهم مع ذلك يتصرفون في مصر ملايين من الناس هم أعضاء حزبهم . وهناك ، في حزب العمال البريطاني مثلاً ، مندوبو نقابات يمثل الواحد منهم عدة ملايين من الأصوات . كما في نقابة عمال الصلب أو الموانئ أو السكك الحديدية . وهذا المندوب يقضى عنهم ويختار لهم . في حين أننا نعلم من القرآن الكريم أن شعيب قد أرسل إلى « مائة ألف ، أو يزيدون . . . » .

وكذلك يستطيع أى قائد حربى حديث فى دولة وسطى أن يرأس جيشاً يزيد عدده عن الجيش الذى قاده هانيبال ودوخ به روما أو الجيش الذى رأسه الاسكندر وفتح به العالم أو انبعث من أحشاء الجزيرة العربية وغزا به الشام والعراق إلخ . وسنمنا عن جيوش تتطاحن أياماً طوالاً ، بل شهوراً وسنين ، فى حركة أو معارك ، وكان يفصل قديماً فى معارك لا تستمر إلا ساعات .

ذلك أن العلم الحديث قد وضع فى أيدي القادة أسلحة ماضية من الصحافة والاذاعة والسينما وغيرها يستطيعون بها أن يتصلوا ، وبالتالي يؤثروا ويحكموا ، أضعافاً مضاعفاً ما كان الزعماء فى القديم يستطيعون بدونها الاتصال ، أو التأثير ، وبالتالي القيادة .

وفضلاً عن ذلك ، فإن شيوع الثقافة واعتبار العمل السياسى مشاركة وطنية يجب أن يساهم فيها كل مواطن ، ومواطنة ، وقد يلزم بها إلزاماً كما تقضى بذلك بعض الدساتير التى تختم على المواطنين ضرورة الاشتراك فى الانتخابات ، قد جعل الكتلة الشعبية جسيمة هائلة ، وأوجد ذلك أمام القادة ميداناً خصباً لبعائهم وقيادتهم . لأنه لما كان من المستحيل أن تعمل

دون قيادة أو أن تقود نفسها بنفسها فقد قضى عليها أن تكون مشاركتها مشاركة الأتباع والأنصار . ووجدت نفسها ، مختارة أو مرغمة ، تقضى وقتها في التصفيق للزعيم ، والصفير للمعارضة . ونظرياً هي الحاكمة ، ومصدر السلطة والسيادة . ولكن منطق الواقع غير ذلك . وكل طريقة تبدعها للتخلص من ربة إيسار القيادة ، تفرض عليها إيساراً جديداً ، فإذا حاربت القائد الديمقراطي بقائد شيوعي أو فاشي . كانت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وإذا استعازت بحزب أو ألفتة ، استغلها الحزب الجديد كالقديم تماماً . وليس إلا الثورة ، ولكن الثورة عيماء مهولة ، تبدأ بأعدائها وتنتى بأبنائها ، وفضلاً عن ذلك فإنها تبرز — أنوماً تيكياً — الطاغية الجديد .

فالعصر الحديث يجمع بين نواح متشعبة ، من شأنها جميعاً أن تزيد في أهمية القيادة . فالجماهير زاد عددها وتنورت تلك الكتل التي كانت توصف قديماً بأنها « السواد الغافل » . وأصبحت المشاركة السياسية واجباً عليها . ورغم ذلك فلم يزل حكم الشعب نفسه بنفسه مثلاً أعلى لا يدرك ونظرية لا تطبق . ولم يصل النضوج بالجماهير إلى الدرجة التي تستغنى فيها عن القيادة أو حتى تحمل من أعبائها شيئاً مذكوراً . لأنها تطرح نوعاً من القيادة لتستظل بآخِر ولأن وطأة الحكم على الشعوب مازالت قاسية في الديمقراطيات وغيرها على حد سواء . والحروب — عدو الشعوب رقم ١ — مازالت مهددة للشعوب ، كأبشع ما كانت .

والنتيجة هي أن اتباع القائد في العصر الحديث يزيدون زيادة كبرى عن أتباعه في العصر القديم . وأن أعباءه تتشعب وتتعدد أكثر مما كانت من قبل . وهذا وذلك — أى زيادة الأتباع وثقل الأعباء — مما يزيد في أهمية

القيادة . ومن السفسطة أن يزعم أحد عكس ذلك . فإن أعظم النظريات التي تنقص من قدر القيادة ونصيب الزعماء — وهى النظرية الماركسية — تدین لبضعة من الزعماء بوجودها وقيادتها . ولولا هذه القيادة لما ظهرت بهذا المظهر ، حتى ليكن القول أنه لم يظهر أثر الرجال والقادة ، مجسما ، عظيما ، كما ظهر في نمو الحركة الشيوعية ، مما يكاد يتعارض مع مبادئ النظرية الماركسية نفسها معارضة كبرى .

أهمية القيادة ومدى تأثيرها على الشعوب

لماذا كانت للقيادة هذه الأهمية البالغة في العصر القديم والحديث ؟ الجواب على ذلك هو أن القيادة تمس ، بالدرجة الأولى ، مصائر الناس وتؤثر تأثيراً مباشراً عليهم فإعلان حرب مثلاً معناه القضاء على عدة آلاف أو ملايين من الناس بالقتل ، وعلى أبنائهم وأمهاتهم باليتيم والشكل وعلى عدة آلاف من المساكين بالهدم والخراب ، وانهاج سياسة اقتصادية معينة قد يجر الإفلاس على الألوف . ويغمر بالثروة ألوفاً أخرى . وقد ينزع الملاليم من المحتاجين المعدمين ليكدسها جنبات للأغنياء المتخمين ، واعطاء امتياز أو احتكار أو عقد معاهدة يقيد البلاد مدة قد تصل إلى ٩٩ سنة ، وبذلك يتحكم القائد لا في جيله كله فحسب ، ولكن في أجيال أخرى عديدة .

وإنك لترى القاضى في المحكمة قابضاً على صولجان العدالة ، مرتدياً وشاح القضاء الرفيع ، آمراً ، ناهياً ، السيد المطلق في قاعة الجلسة ، وترى شارات وظيفته تكاد تغطى على شخصه ، أو تنظر إلى القائد تلمع أوسمته ، يصدر الأمر فلا يجاوب إلا بكلمة « تمام يا أفندم » ، وأنى سار أو تحرك قابله الأيدى

بالتجربة ، فإذا أحيل القاضى والقائد على الاستيداع ارتسمت فى الذهن صورة هزيمة لشيخين محطمين لا يملكان لأنفسهما شيئاً . ولا تقبل وساطتهما إن توسلا للغير وهما فى لبسهما المدنى المجرد لا يفرقان عن الغمار الشعبى السائر فى الشوارع ، أو الجالس فى النوادى . أى بون شاسع بين الصورتين ؟ وفى تقدير الناس وفهمهم ومعاملتهم ؟ ألا إن هذه الملاحظة العابرة لهى دليل أى دليل على أن أهمية القائد لا تعود إلى نفسه وشخصه قدر ما تعود إلى المنزلة التى منحها له المجتمع ، والمقعد الذى أجلسه عليه حيث يستطيع أن يتحكم فى المصائر .

وما من شك فى أن ذلك ليس هو شأن المهن الأخرى فالإسكافى والزارع والبقال والتاجر والصانع يتعاملون مع أشياء ، والطبيب والمحامى ، وإن كان عملهما يدور على الناس ، ويؤثر على المصائر ، إلا أن ذلك يتم بشكل فردى لا يمكن أن يقاس بتأثير القيادة الإجماعى الشامل فضلاً عن اختلافهما فى مباشرة المهنة وطريقة الحكم والوصول إلى نتيجة . فالطبيب يكشف ويعاين ويستعيد دراساته ويحكم بمشاهداته ثم يصف الدواء ، ويلحظ أثره على المريض ، فإذا كان ناجحاً سار به إلى الشفاء . وإلا بدله بآخر أو استشار زميلاً أو رجع إلى مصادره . وكذلك المحامى إذا فشل فى قضية فإنه يستطيع أن يستأنف ، فإذا خسر الاستئناف أمكن الطعن فى الحكم بطريق النقض والإبرام . وفى جميع الحالات فإن مغبة أعمالهما فردية ، تعود على أفراد لا على جماعات .

أما القائد فمن المستحيل أن يلمس بنفسه كل الأمور التى يقضى فيها ، وإنما يقدمها له حاشيته . وما أقطع دور الحاشية فى التاريخ ! ذلك أن الإنسان قلما يستعين إلا بمن ينمق له المدح ، ويكيل له الثناء ويوافقه ، ويخضع له . أما أحرار الفكر ، أقوياء النفس فإنه ينفر منهم ، فإذا لم يحاربهم ، فإنه — على

الأقل — لا يتعاون معهم ولا يفيد من خبرتهم . وهذه ناحية ملموسة تدور على ألسن الناس ، في كل العصور فهم لا يفتأون يقولون عن فلان من الزعماء إنه طيب ، ولكن حاشيته سيئة . وقد شكّا عمر بن الخطاب من قبل من خيانة القوى . ووصف الأقدمون كما وصف شوقي بك في أبيات رائعة التأثير الهدام المدمر للمدح والملق في نفس القائد :

يولد السيد المتوج غصاً	طهرته في مهدها النعاء
فإذا ما الملقون تولته	تولى طباعه الخيلاء
وسرى في فؤاده زخرف الق	ول يراه مستعذباً وهو داء
فإذا أبيض الهديل غراب	وإذا أبلج الصباح مساء

ثم ان نتائج عمل القائد لا معقب لها والعياذ بالله ! فالمقتول لا يعود إلى الحياة ، والمهدوم لا يقوم مرة ثانية إلا بجد جديد كأن لم يكن بالأمس ، والهزيمة النهائية حكم باستعباد قد يظل قروناً . وقد قضت أهواء امرأة بأن تخسر مصر معركة « اكتيوم » فتستعبد للرومان سبعائة سنة ! وقضت غفلة الغورى على مصر بأن تسقط في أيدي الترك ثلاثة قرون !

وهذه النتائج الخطيرة ، على ذلك ، لا تكلف القائد إلا امضاء أو أمراً يضعه وفكره مشغول ، وذهنه مهوش ، فيهدم به بيوتاً ، بل بلاداً ، ويتم آلاف ، بل ملايين ، ويقضى على الشعب بالتخبط في أفقاص الاحتكار والامتياز واغلال الاتفاقيات والمعاهدات .

والعجيب ان هذه الأعمال البالغة الخطورة ، والمؤثرة تأثيراً كلياً على مصائر الملايين ، لا تتجسم له بكل خطورتها وبشاعتها فالإسكافي مثلاً يأخذ الجلد فيصنعه على عينه وييده حذاء ويلم تماماً بكافة الأدوار من دبج الجلد

إلى وضع الحذاء في القالب . أما قائد الجيش ، فهل يتصور ، عندما يمهر بامضائه أمراً بغارة جوية مدى بشاعة هذا العمل ؟ وحتى لو تصور ، كالفيلم أمام عينه وهو جالس إلى مكتبه الوثير ، فما قيمة هذا التصور ؟ إن الانسان لا يتأثر إلا بالمشاهدة ، واللمس ولو رأى هذا القائد رأى العين ، ولمس لمس اليد أعقاب غارة جوية ، والحريق ، والصراخ والعيول ، والإصابات والتشويهاً وهلع الأمهات ، وتشريد الآمنين ، وهدم البيوت ، وبتّر الأعضاء ، وقتل الأطفال ، لو رأى هذا كله ، لتردد قبل أن يوقع ، ولكنه لا يلمس شيئاً من ذلك كله ، وهذا يجعله يقدم شجاعاً (وأى شجاعة) على قذف الآلاف إلى الأتون الملتهب المصور ، والمروحة الكهربائية تداعب في مكتبه الفخم وجهه بالنسيم العليل .

وأعجب من ذلك كله ان المعركة تنشب وتنتهى يموت من يموت ، ويشرد من يشرد ، ويقضى بالفقر والعهر والبطالة والبؤس على الجموع البشرية والقطعان الشعبية والقائد — أصل ذلك — هو هو لم يتغير . ولم يفقد حتى في الهزيمة — بلهنية العيش — فإذا مات منتصراً أقيمت له المقابر الضخمة الممردة ومنح آله وورثته الألوف من مال الدولة . وإذا عاش منهزماً كفلت له أسباب الحياة على نحو طيب فيقضى وقته يزيّف التاريخ ويبرر هزيمته كما فعل نابليون في سنت هيلين أو ولهم الثاني في هولندا . ولو قضى على القادة أن يكونوا أول المتحملين لمغبة أعمالهم . فيعرض أبنائهم في الغارات الجوية قبل أبناء الشعب . وتذوق أسرهم الحرمان والبطالة والذل كأفراد الشعب . ويحكم عليهم — كما يحكم على الناس ، بالجلد والسجن والأشغال الشاقة — لكان للقادة رادع قوى ، ولكن القادة يحاملون بعضهم بعضاً . والشعوب وحدها تدفع الثمن ...

هذه هي منزلة القيادة . لا جرم إن كانت أعظم المنازل وأخطر الدرجات . وماذا عسى أن تكون المهام الأخرى بجانبها ؟ ماذا عسى أن تكون أحلام الرجال والنساء والشباب ومشاريع التطلعين إلى المستقبل أمام القيادة التي تودى بهذه الآمال كلها ، كريح عاصف لا تبق ولا تذر . أو تقلبها رأساً على عقب كزلزلة لا يثبت أمامها شيء .

أى مسخ دمى بين المسوخ والوحوش يفعل فعل القائد البشرى ؟ إن أسد الصحراء وأخطبوط الماء ودب الجليد أنبل نفساً وأرحم نائباً ومخلباً من القائد العسكرى الذى يزجى الفياقق الإنسانية نحو الهلاك المحقق . ويجعل من آلاف الأجساد غرضاً للرماح والسيوف ودرية لقنابل المدافع . وهى أعف يدأ ، وأطهر قلباً من السياسى المحنك الذى يسخر الذكاء والدهاء فى خدمة ملك من الملوك أو أمير من الأمراء . فيقنن القوانين . ويركز الأوضاع بحيث تستغل الشعوب والجماعات وتحتبس فى قيودها كما تحتبس الطيور فى الأقفاص .

إن قبول بن آدم للتبعية الإنسانية المجردة ولأمانة التكليف والواجبات الفردية هي جرؤة أشفقت منها السموات والأرض والجبال . أما أن يتحمل الإنسان فوق ذلك التبعية الفادحة للآلاف والملايين . فأمر يفضل العقل أن يرمى بالجنون قبل أن يتحملة . كما كان يفعل المرشحون للقضاء فى الزمن القديم ! ويدفعه لأن يغشى عليه إذا سمع مثل هذه الآية « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » أو يجعله يعمل ، ويعمل ، ويكدهج كما كان يعمل عمر بن الخطاب ثم هو سعيد بعد ذلك إذا خرج منها كفافاً لاله ، ولا عليه ! .

والواقع أن الإنسان يرتعد عند ما يتصور ملايين المظالم التي ترتكب كل

يوم باسم الحاكم ، وباسم القانون وعندما يخترق بعين فكره سدقات الليل
المظلم فيرى الحشرات والآلام التي لا حد لها تحجبها الجدران الصماء ، وتكبتها
النفوس في أطوائها .

مثل هذه الأعباء الجسيمة الخطيرة جعلت القيادة مسئولية عظمى ، شاد
النبي الكريم بأهميتها فقال « عدل ساعة خير من عباده ستين عاماً » وقال
« ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه عن ذلك الغل
إلا العدل » وجعل أعظم الشهداء شهيد قال كلمة حق عند سلطان جأر فقتله .

وأشار القرآن إلى هذه المعاني كلها ، وصور التبعة الثقيلة على القادة ،
وذكر أن هناك قادة صالحون « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم
فعل الخيرات وإقام الصلاة » « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا
وكانوا بآياتنا يوقنون » .

وهناك قادة طالحون ، يفسدون في الأرض ، ويدلون الشعوب ويقودونها
إلى النار وبئس المصير « يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار وبئس الرفد
المرفود » « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ، ويهديه إلى عذاب السعير »
« وأضل فرعون قومه وما هدى » « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر
مجرمين ليذكروا فيها ، وما يمكنون إلا بأنفسهم وما يشعرون » « وجعلناهم
أئمة يهدون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون » « وإذا أردنا أن نهلك
قرية أمرنا مترفوها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » « إن
الملك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » .

وضرب المثل لأهمية العمل الجماعي بصفة عامة وكيف يحيق أثره بالجموع

بتسعة نفر من المتآمرين من قوم صالح » وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، فقالوا تقاسموا بالله لنبيقته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ، ومكروا مكرأ ومكرنا مكرأ وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن ذلك لآية لقوم يعلمون .

رسالة القادة ونوحيات القرآن الكريم للأتباع

إذا كانت أهمية القيادة وقداستها وخطورة مسئوليتها إنما جاءت من مساسها بالشئون العامة وتأثيرها عليها وتعلقها بالناس ، وحياتهم ومصائرهم ، فمن الطبيعي أن تكون هذه الشئون العامة ، وأصحابها من الشعوب ، هي هدف القيادة وغايتها ، ومن اللازم أن يجعل القائد غرضه الوحيد — الذي لا يشرك به شيئاً — هو هذه الشئون وهؤلاء الأفراد الذين منهم تنبعث أهمية منصبه ، ولما كانت الشئون العامة من الضخامة والخطورة بحيث تستنفد طاقته ، دون أن تنتهي ، كان من العسير جداً على القائد الذي يفهم واجبه ويحافظ عليه أن يجد من وقته فراغاً ، أو من نفسه اهتماماً ، يمنحه لرعاية شؤونه الخاصة والعائلية .

وهكذا تبدو لنا قسوة وضعية القيادة كما يجب أن تكون وتبدو حقيقة رايها القائد الأصيل وضعاً سليماً ، وينشد القائد المزيف ازاءها .

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه
تلك الحقيقة هي أن القائد ، يعطى ويهب الناس ، ولكنه لا يأخذ هو ،

لأنه في الواقع يعطيهم من أموالهم ، وان يكون مهيمناً على الجميع ، ولكنه يهيم على نفسه قبلهم فلا ينيلها من ثمار طاعة الناس له ، واثقيادهم إلى أمره شيئاً ، وأن يكون معرضاً لأشد أنواع الإغراءات ، ومكلفاً في الوقت نفسه بالصد عنها ، والزهد فيها والحرمان منها ، وأنه وان كان يشرف على كل الوسائل إلا ليس هو الغاية بل أكثر من ذلك يكتشف أنه « إذا سمن الراعى هزلت الرعية » كما اكتشفت ذلك زوج عمر بن عبد العزيز . . وان عمار ميوت الناس قد يحيف على بيته فيصيره خرباً أو كالخرب .

ومن الصعب العسير على أى قائد أن يتحمل هذا الوضع القاسى وأن يخضع إرادته ، أو يروض نفسه على احتماله ما لم تكن هناك قوة معنوية تشد أزره وترفع روحه ، وتسمو بنفسه فوق الأغراض الدنيوية ، وتوجه فيه نوازع الطموح ، وقوى الملكات للخدمة ، وللخدمة فحسب ، قلباً وقالباً ، معنى ومظهراً . وهذه القوة المعنوية في أعظم صورها هي الإيمان الدينى لأنه الوحيد الذى يسحق نوازع النفس الدنيوية والذاتية سحقاً . ويأتى بعد الدين أقرب الدعوات اليه وأشدّها إكتساباً للمعنى العقدى . ومن أجل هذا كانت القيادة في الدعوات الفاشية والشيوعية أبرز من القيادة في المذاهب الديمقراطية . ومن أجل هذا أيضاً كان الأنبياء أرفع درجات القادة وأنبلهم كفاحاً وأشدّهم جهاداً أو هم — كما قال شوقي — ملوك الحقيقة (١) .

وانك لتلمس ظاهرة عجيبة في القرآن قد لا يفهمها الانسان لأول وهلة . أو يدرك حكمها الرائعة ما لم تكن عيناه قد تفتحتا على مسألة القيادة . تلك

(١) اءما الأرض والقضاء لربى وملوك الحقيقة الأنبياء
لهم الحب خاصاً من رعاياهم وكل الهوى لهم والولاء
« شوقي »

هي التوجيهات الرائعة التي يسوقها القرآن للأنبياء والتي تتضمن دستوراً إلهياً في القيادة والدعوة لا يقاربه أى دستور آخر . وترسم للنبي طريقاً لحباً واضحاً لا أمت فيه ولا التواء . وتبشر له سبيل هذا الطريق . وتجنبه العثرات وتذلل له العقبات .

وهذه التوجيهات تدور حول محور أساسى هو أن الرسالة وقيادة النبي مسؤولية موضوعية بحته . لا أثر فيها للذاتية ولا للعنصر الشخصى . وإن الأنبياء دعاة أولاً وآخرآ . وشخصيتهم محصورة دائماً بأدوات الحصر الوظيفية « إن أنت إلا نذير » « إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » « وما أنا إلا نذير مبين » « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » « إنما أنت منذر » « قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » وشخصياتهم وعواطفهم وحياتهم الخاصة كلها تبع للدعوة لا تنحرف عنها قيد شعرة . وبذلك يوجد القرآن أعلى طراز من القادة المتجربين للقيادة الذين يجدون في التفرغ للدعوة . والحرمان مما عداها معانى لا يظفر بها غيرهم . إذ الوصول إلى الأعماق يتطلب أعلى مراتب التركيز والتفرغ ، وكلما زاد التركيز زاد التعمق ، وكلما تعددت مشاغل النفس كلما طارت اهتماماتها شعاعاً وتفرقت أشتاتاً . وتوزع تركيزها . وضؤل نصيبها من التعمق . كما أن هذا الحرمان مما عدا الدعوة يصقل النفس ويجردها من أنانيتها واعتزازاتها بالخصوصيات الفردية . والمقتنيات الشخصية ويحسم ما توجده الوفرة والتخمة من إقبال بالداعية إلى الأرض . وإخلاذه إلى السكون وتلويث لصفائه الفكرى أو استهلاكه لنشاطه في هضم ما أكل . وتسويغ ما بلع . فضلاً عن أن هذه العروض والمشاغل تقوم سوراً بينه وبين الجماهير المحرومة والآلاف المترتبة التي تتطلب نصيبها من وقته وحقها في

اهتمامه ، وتحول بينه وبين التجاوب الفكرى معهم . وبذلك ينزل الداعية عن جمهور دعوته ولا يوجد ذلك الجو من الفهم والتعاطف الذى يترفق فى إدخال الدعوة إلى النفس ويصهر الخلافات ويزيل العقبات ويكشف حقائق الأمور وأعماقها لا مظاهرها السطحية . وأخيراً فبغير هذا الأدب القاسى والمران الدائم وإغلاق الباب أمام كل إغراء لا يعلم أحد أين تقف الشهوات بالنفس الإنسانية . وما مدى تقلب القلب وانحرافاته . إن أقل تسليم يعد انتصاراً كبيراً . ويعقبه تسليم أكبر وهكذا حتى يجد الإنسان نفسه عبداً لسورة الاقتناء والملكية . وتسلمه الرغبة فى القليل إلى الرغبة فى الكثير . وتسترقه العادات ويقسو منه القلب وتجمد الحواس .

ومن أجل هذا جارت الصفة الوظيفية على الصفة الشخصية : فمع أن الأنبياء والدعاة والقادة من حقهم ، كأشخاص ، أن يظفروا بما يظفر به ، على الأقل أوساط الناس . إلا أن الصفة العامة لهم حافت على الصفة الخاصة وانتقصت منها حتى رأينا النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر يجوعون بينما يشبع الناس . ويعرون عندما يكتس الناس . ويسهرون عندما ينام الناس . وكان النبي أشد الناس تعبدًا . وأكثرهم تهجدًا وإن غفر له مقدماً ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

فلنتنظر الآن إلى القرآن كيف يعالج هذا المعنى فى توجيهاته للأنبياء والقادة وكيف يحيط به من أطرافه ويلم به من أقطاره ويركزه تركيزاً . فهو يشير إليه بصفة عامة حيناً « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » . « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك . وإن لم تفعل فما بلغت رسالته . والله يعصمك من الناس » . « فلذلك فادع واستقم كما أمرت . ولا تتبع أهواءهم . وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم .

الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا وإليه المصير . »

ثم يعود فيوضح هذا المعنى من ناحية أخرى . ناحية أن الأنبياء لا يأخذون أجراً ، ولا يطلبون مالا ولا يزعمون لأنفسهم صفة أكثر من أنهم بشر ، من الله عليهم بالرسالة ، وجعلهم مبشرين ومنذرين بأمر لا يتحولون عنه ولا يزيدون فيه ، أو يتقصون منه أو يلجأون إلى طرق الرشوة الأدبية أو وسائل الإغراء أو الإرغام ، وإنما يكون ذلك كله إلى الله يحكم فيه بإرادته .

« قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم . ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله . أفلا تعقلون » . « ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً . إن أجرى إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون » . « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا . إن أجرى إلا على الله » . « وإن توليتم فما سألتكم من أجر . إن أجرى إلا على الله . وأمرت أن أكون من المسلمين » . « قل ما أسألكم عليه من أجر . إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً » . « وما أسألكم عليه من أجر . إن أجرى إلا على الله رب العالمين » . « ولا أقول لكم عندى خزان الله . ولا أعلم الغيب . ولا أقول إني ملك . ولا أقول للذى زدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً . الله أعلم بما فى أنفسهم . إني إذا لمن الظالمين » . « قل لا أملك لنفسي نقعاً ولا ضرراً . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » « قل ما كنت بدعاً بين الرسل . وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى . وما أنا إلا نذير مبين » .

وتارة أخرى يشير القرآن إلى هذا المعنى نفسه من ناحية ثالثة . هي

أن الأنبياء لا يستطيعون إنقاذ آلهم إذا استجبوا الكفر على الإيمان . وأنهم لا يملكون لهم من الله شيئاً . « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين . ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه . فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . إن إبراهيم لأواه حليم » . « ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق . وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح فلا تسئلن ما ليس لك به علم . إني أعظك أن تكون من الجاهلين » .

وتارة رابعة يحذر القرآن الأنبياء من الفتنة أو الميل ، ويعدهم العذاب مضاعفاً . . . « .. وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك .. » « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلاً ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذا لأذقناك ضعف الحياة ، وضعف المات ثم لا تجد لك علينا نصيراً .. » « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » . « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين » .

حتى هذه الاثارة الداتية التي تتردد في نفس الأنبياء وتثير في قلوبهم الحسرة آناً ، والشفقة آناً آخر ، والحرص على إيمان الناس وهدايتهم آناً ثالثاً ... تأتي الآيات صريحة في اطراحها ، وإيكال الأمر كله لله ، والاستعانة بالصلاة وعدم السماح بنوازع النفس أو دوافع العاطفة بالظهور « إن تحرص على هدايتهم ، فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين » « وإن كان كبر عليك أعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سمساً في

السوء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين » « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل » « وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنا عليك البلاغ وعلينا الحساب » « ولا تحزن عليهم . ولا تكن في ضيق مما يمكرون » « إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » « أفأنت تسمع الصم ، أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين ، فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ، أو نرينك بعض الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم » .

وفي هذه الآيات حكمة عميقة ، فتحت ستار الرغبة في هداية الناس ، تكن عدة عوامل بعيدة كل البعد عن الرغبة الخالصة النقية في الهداية ! وإنما يظهرها الشيطان في هذا الشكل ليتخذ منها ثغرة ومنفذاً ولئن عصم الله الأنبياء منها . فإن القرآن ليشير إلى هذه الناحية الخطرة حتى يتأس القادة بالأنبياء ويتبعوا الدستور الآلهي الذي سنه الله عز وجل لهم لأنه أعلم بما توسوس به النفوس ، وتتقلب عليه القلوب ، وما أكثر ما تكون الرغبة في الهداية بادرة طغيان أو علامة تسلط ، أو مظهراً من مظاهر الزهو الشخصي بكثرة الاتباع ! وما أكثر ما يدفع الاغراق في تطلبها القائد إلى أساليب ليست من الدعوة في شيء كارغام الناس على الهداية ارغاماً ، أو التنازل عن بعض دعوته ، أو تبسيطها أو اظهارها بالمظهر البراق اللامع . أو مهادنة من لا يستحقون المهادنة . فإذا لم يفعل ذلك ، فلعله باخع نفسه مستقل للجهاد .

أثر هذه التوجيهات في النهوض بالقيادة الإسلامية

ما أروع هذه التوجيهات الإلهية الشاملة : دعوة مطهرة من السماء ، يحملها رجل لا يفتأ يكرر أنه بشر مثل الناس سواء بسواء ، لا يتعالى عليهم ، ولا يطلب على دعوته أجرآ ، ولا يرى لنفسه ولا لآله حقاً في امتياز أو إعفاء من واجب ، ولا يجعل لعواطفه وأهوائه سلطاناً على دعوته أو دخلاً فيها ، ما أعظم البون بين هذه القيادة النبوية المطهرة ، وبين قيادات الملوك والأمراء ، الذين يتعالون على الناس وينسبون أنفسهم للآله ، ويفخرون بالحسب والنسب ، والدماء الزرقاء والألقاب الموروثة ، ويؤثرون أنفسهم بأطيب الخيرات ، وأعظم الثروات والشعوب جائعة ، عارية ، فقيرة ، ويجعلون عواطفهم وأهواءهم قانوناً نافذاً ، ويشركون آلهم في هذه الامتيازات .

لقد تأدب نبينا صلى الله عليه وسلم بآداب القرآن . وكان خلقه القرآن ، كما قالت السيدة عائشة ، فهو وإن كان من أوسط قريش حسباً ، وأعلاها نسباً ، وأفصحها لساناً ، فهو يقول « إنما أنا عبد ... آكل كل ما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » اللهم أحيني مسكيناً وأمتي مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين ، وإذا فاتحه أصحابه فيما يتخذ من فراش خشن واقترحوا أن يتخذ فراشاً ناعماً غضب غضبة نبيلة تنبأ حقاً بأنه كان خالصاً مخلصاً لدعوته ، وإذا دخل مكة فاتحاً منصوراً ، خفض رأسه ، وشغل لسانه بالتسبيح ذلك لأنه يعلم — كما علمه الله — ان ليس له من الأمر شيء ، فإذا فتح فتحاً أو أحرز نصراً فالله أحق بالشكر . وأولى بالثناء ، وإذا أتى بمال أو سلم متاعاً ، فإلى المصارف التي أمره الله بها ، إلى بيت مال المسلمين

ليتنفع بها المئات من الناس لا ينال محمد وآله إلا كما ينال أحاد الناس . ثم لا يورث بعد ذلك ! ولا يرى لآله من صلة النسب — حصانة تتجهم من العقاب أو تعفيهم من الواجبات فهو يجمع آله ، ويقول لهم « إعملوا ... فاني لا أغني لكم من الله شيئاً » .

وإذا خاطبوه أن يعفي امرأة شريفة سارقة من حد السرقة قام غاضباً يرى حداً شرعياً وقانوناً عاماً سُنَّ للجميع يراد له أن ينتقص للاحية ذاتية فيضرب المثل بابنته المحبوبة « فاطمة » « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطع محمد يدها » .

فلما مات ، ودرعه مرهونة عند يهودى خانت الشجاعة عمر وغيره من الصحابة ، في ساعة العسرة والشدة التي فاقت المدارك ، خسبوا محمداً خالداً كدعوته ، ونسوا أن الأنبياء إنما هم رسل خُسب عليهم التبليغ ، والله وحده له الخلود ، وهو وحده الغاية ، فارتفعت صيحة أبي بكر تصحح الخطأ . وترد الصواب الذي عزب عن العقول ساعة الشدة . « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت » « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الشاكرين » .

وهكذا عاش لدعوته ، ومات لدعوته ، وحق فيه قوله « حياتي خير لكم وموتي خير لكم » .

هذا الدرس العظيم في القيادة تشربه أبو بكر وعمر وانتفعا به انتفاعاً ظاهراً ، بل انتفع به العرب قاطبة وإلا ما كانوا ينتخبون أبا بكر انتخاباً ثم يفرضون له فرض رجل من عامة المسلمين لا وكس ولا شطط ثم يحاسبونه

بعد ذلك بألسنتهم . ويقومونه بسيوفهم . فهذه كلها أفعال لا يمكننا أن نمر عليها سطحياً لأنها تنبئ عن فهم عميق من الشعب لنفسه وحقه وإدراك لواجب القيادة ، وإن القائد « موظف عمومي » فحسب ، ليس له أن يعمل لنفسه ، وأن وقته قد أصبح ملكاً للدولة ، فلا يجوز له أن يضع شيئاً منه .

وبجانب هذا الإصرار من الشعب على حقه ، نجد مقابلاً له إصراراً لا يقل عنه من القائد على حق هذه الأمانة التي أؤتمن عليها . فهو يقف وقفة الجبال الشاخنة ، لا يرق ولا يلين ولا يقبل دنية ولا يرضى في جنب الله مساومة ، أو مهادنة ، ويرفع صوته « والله لو منعوني عقلاً كانوا يأذونه إلى رسول الله لحاربهم عليه ما استمسك قائم السيف بيدي » وهكذا يكون الحرص على الأمانة ، والتقدير للتبعية فما كان المشركون يدفعون إلى أبي بكر أو إلى محمد ، وما كان أبو بكر أو محمد يستفيد من هذه الأموال ، ولكنها أموال الشعب يريد الكبراء أن يحتجزوها عنه ، وليس أبو بكر بالذي يفرط في درهم منها ، أو يأخذ درهماً منها لنفسه ، وكيف يمسه وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ينذر القوارع ، لمن يأخذ شيئاً من مال المسلمين دون وجه حق ، أو يستغل صفة الإمارة ، ويراها غلواً ، يطوق به آخذه يوم القيامة ، ويعاقب عليه العقاب الأليم كبيراً كان أو صغيراً ، بصفة مباشرة كالرشوة ، أو غير مباشرة كالمهدية ، وراه ، وهو يأخذ بيده وبرة من جنب بغير من الغنيمة ويقول « لا يحل لي من مغنمكم مثل هذه الا الخمس ، والخنس مردود فيكم » .

وما من شيء أعظم إيضاحاً لفهمه — أي أبي بكر — معنى القيادة وإيثاره الصفة العامة على الصفة الخاصة ، ومصلحة الشعب ، على القداصات المدعاة ، التي تهدر بها مصالحه من قوله في موته لعمر « إني لأرجو أن أموت

في يومى هذا . فإن أنا مت فلا تسمى حتى تندب الناس مع الثنى . ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم . وقد رأيته متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت . ولم يصب الخلق بمثله ، والله لو أتى أنى عن أمر الله ورسوله لخذلنا وعاقبنا فاضطربت المدينة ناراً » ووصيته لعائشة « أى أمة إنى اضطلعت بأمانة هؤلاء القوم حين كان النكوص إضاعة والخذل تفريطاً فتبلغت بصحفتهم وتعلت بדרه لفتحهم وأقمت صلاتى معهم لا محتالاً أشراً ولا متكاثراً بطراً لم أعُد سد الجوعة وورى العورة وقواته القوام . فاضطرت اضطراب المريض إلى المعيف الآجن . فإذا أنا مت فردى اليهم صحفتهم وعبدهم ولفتحهم ورحام وذنارة ما تحتى بها نز الأرض كان حشوها قطع السعف » .

وكان أبو بكر قد طلب من بيت مال المسلمين « قوت » رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم . وكسوة الشتاء وال الصيف ، إذا أخلق شيئاً رده ، وأخذ غيره ومع هذا الاحتياط من إعادة هذه « العهدة » فإنه منح المسلمين أرضاً كانت له . وأوصى أن لا يكفن فى جديد ، « فالخى أولى به » .

ولم يعرف التاريخ بأجمعه رجلاً حريصاً على أموال الأمة فطناً إلى مزالق التصرفات ، ودخل النفوس ، محتاطاً للامر قبل وقوعه ، حاسماً له قبل تفاقمه ، صريحاً فى ذلك كله ، كل الصراحة ، كعمر .

هذه صيحاته المدوية . . .

« ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده [وقريش وقت ذلك تمثل الأرستقراطية العربية] ألا فأما وابن الخطاب حى فلا . إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بمخاليم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار » .

« أيها الناس ، إني والله ما أرسل عمالي ليضربوا أباشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستكم وليقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل . فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه » فإذا قال عمرو بن العاص « يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصنه منه صاح » أي والذي نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه وكيف لا أقصنه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه » .

« والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد . والله ما من أحد من المسلمين إلا وله في هذا المال نصيب ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه » .

وثمة ناحية خاصة في سياسة عمر توضح مدى فهمه لحقيقة القيادة وما يعتورها من مغريات ومزالق تزل فيها الأقدام الثابتة . وتقلب فيها القلوب الراسخة . تلك هي عزله لكبار القادة والولاة عند ما تصل أمجادهم الذاتية إلى الدرجة التي تحجب فيها غرض الدعوة أو يخشى معها أن يختل التوازن بين الراعي والرعية ، القائد والشعب ، فيغتر القائد بقدر ما يُسلم الشعب ، حتى تقلب العلاقة من علاقة تربط القائد بالشعب إلى أخرى تربط الشعب بالقائد ، وتكون تلك بادرة لعهد من الطغيان والتحكم ، وعمر مع ذلك يعتذر اعتذاراً لبقا ، لا ينتقص فيه من العبقرية الذاتية لهؤلاء القادة ولكنه يكره أن يحمل الناس على فضل عقولهم !

وهذا الفهم نفسه لكنه القيادة ، وواجب القائد هو الذي جعل عمر يسير بمرقته ودرته . لقد كان يستطيع أن يصلح من مرقته أو يستعيز عنها

خيراً منها ، ولكنه رأى أن يبرز ناحية موضوعية ، لا أن يعنى بناحية ذاتية ، وكما زادت انتصارات المسلمين ، وتعددت أمورهم وتعددت مسائلهم وقضاياهم ، واتسعت رقعة الوطن الإسلامي ، كلما تعددت واجبات عمر ، وكما عظم إهماله لنفسه وزادت قسوته على نفسه وآله ، فهو يجمع آل الخطاب ويوعدهم ضعفاً من العقاب الذي يفرض على عامة الناس ، لأن الناس تنظر إليهم ، نظر الطير إلى اللحم ، وكما عظمت امبراطورية المسلمين ، ولمس عمر إثارة من زهو تدخل قلبه ، كلما قابلها بإذلال جديد ، فهو يطلى إبل الصدقة ، ويحمل غرارة الدقيق ، وينفخ النار ، ويسرع بالنزول إذا أركبوه برذوناً : « انزلوني أنزلوني كاد العجب أن يهلكني ! » .

وهو يطبق مثل هذه الطرق على قاده وأمرائه ، فيعطى الدرة لقبطى من مصر ليضرب به عمرو بن العاص « إضرب ابن الأكرمين » ويلبس عياض بن غنم — خال أبي عبيدة الجراح ووالى الجزيرة جبة صوف ويعطيه عصا ، وصرمة من الغنم ويقول له « ارع فإن أباك كان راعياً » .

وبين يدينا صورة لخطابين رائعين يصوران لنا كيف كان أبو بكر وعمر يحذران قوادهما من الغرور ، أو الادلال بعمل أو إبراز المعنى الذاتي ، فهذا أبو بكر يكتب إلى خاله بن الوليد الفأخ المتصر غداة انتصاره :

« سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت . فإنه لم يشج الجموع بعون الله من الناس شجيك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك ، فليهنك اباسليمان النية والحظوة فأتمم يثم الله لك . ولا يدخلنك عجب فتحسر وتخذل . وإياك أن تدل بعمل فإن الله عز وجل له المن ، وهو ولى الجزاء » .

وهذا عمر بن الخطاب يشيع سعد بن أبي وقاص قائد جيش القادسية ، ويوصيه « يا سعد : لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله . فإن الله لا يحجو السوء بالسوء ، ولكن يحجو السوء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته . فالناس في ذات الله سواء ، الله ربهم ، وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة » .

هذا الفهم لقداسة القيادة هو الذى جعل عمر بن عبد العزيز ، إذا أتى له بالثوب الحسن — وهو خليفة — يقول ما أنعمه وكان يقول قبلها إذا أتى له بالثوب الناعم ما أحسنه !

وهذا الفهم نفسه هو الذى جعل الإسلام يقرر « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » « ظهر المؤمن حمى إلا بحقه » « من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى » ، وبهذا يعطى الشعب حق الثورة ، ويجعله حقاً رسمياً وشرعياً إذا خالف القائد شرعة القيادة أو أخل بأمانتها . ذلك الحق الذى لم تصرح به حتى الآن الدساتير الحديثة إلا ما ندر كاللستور الأمريكى ، فى اعلان الاستقلال (١) .

(١) مطلع اعلان الاستقلال الأمريكى فى ٤ يولية سنة ١٧٧٦ « إن جميع الرجال مخلوقين متساوين ، موهوبين من الخالق بحقوق معينة لا يمكن الساس بها ، منها حق الحياة ، والحرية ، والكسب ، وانه لتأمين هذه الحقوق تقوم الحكومة بين الناس مستمدة قوتها من موافقة المحكومين . وأن أى شكل من الحكومات ينقلب هداماً لهذه الغايات . فإنه حق الشعب أن يغيرها أو يزيلها ، وأن يؤسس حكومة أخرى » تاريخ أمريكا السياسى والاجتماعى هارولد اندرود فلكتر .

كيف ينقلب القادة دعاة انحلال

إذا كان الأمر كذلك . وإذا كان القرآن قد أظهر الأنبياء والرسل مبلغين ، ومبشرين ، ومنذرين ومكلفين بأن يهبوا الدعوة حياتهم ، ومماتهم « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » فمن الطبيعي أنه يتطلب في القادة الأسوة والاتباع ، ويرجع مسئولية الانحلال في معظم الحالات إلى مخالفة هذه القاعدة الأساسية الكلية للقيادة ، قاعده أن القائد ، وسيلة لا غاية . وأن مهمته موضوعية بحته لا أثر فيها للذاتية ، فهو لم يوجدها إيجاباً بحياته ولم يمتها بموته ، وإن تقلده لمنصب القيادة لا يمنحه حقاً ذاتياً ، وأن كل دقيقة من وقته المكرس للدعوة ، وكل درهم يختلسه من مال الناس ، إنما هي خيانة وغلول ، وأن كل تعدلواجباته ، تفقده الصلاحية . وتمنح الشعب حق الثورة عليه ، بل توجب ذلك على الشعب إيجاباً ، كما سنرى في الفصل القادم .

وكل الشواهد التاريخية تؤيد ذلك . وتنطق بأن الذاتية هي لعنة القيادة . وأنه في اللحظة التي يتحول فيها القائد من الموضوعية إلى الذاتية . ينقلب من وسيلة إصلاح إلى وسيلة إفساد . فإذا كان في الأولى حارساً على الأموال فإنه يصير ناهباً للأموال يسطو على أموال الدولة ، ويتحايل على ثروات الناس . ويرى في الأوقاف والجبوس وما أشبه من الأموال العامة لقمة سائغة . ويخس الحقوق أو ينتقصها نظير الرشا والهدايا . وإذا كان في الأولى حاقناً للدماء . حفيظاً على المهج والأرواح ، انقلب سفاكاً للدماء . يسعد برويتها

تجرى وينتشى بمشاهدة الآلام ، وسماع الأنات . وبدلاً من أن يكون كعمر ابن الخطاب يرى أن سلامة جندى إسلامى واحد بالدنيا وما فيها يكون كإمبراطور روماني يتلذذ بموكب الأسرى يحيه في « الكولزيوم » وهو ذاهب ليحارب بعضه بعضاً حتى الموت ! أو يقابل الوحوش المفترسة . أو يأمر بحرق آلاف من الأسرى لكي يضيئوا له موكب النصر ، وبدلاً من أن يرى القائد نفسه وسيلة لغاية هي خدمة الشعب يرى نفسه الغاية والشعب وسيلة . وتظهر الأوضاع والقوانين التي تحقق هذه الفكرة فيرفع نفسه فوق الناس منازل قد تصل إلى الألوهية ! وتخفض الشعب إلى درجة العبيد ، ويكتسب آل القائد وعشيرته منه هذه الميزات فيكونون مثله ، أو أدنى قليلاً ، وينال الأتباع والحاشية رشاش من الرفعة ، فتوجد لهم درجات يستطيعون منها أن يظأوا الطبقات التي تحتهم ، وتلين القوانين للصفوة المختارة بحيث تمنحهم كل المزاي ، وتقسو وتضيق على العامة حتى تكس عليهم الأثقال أ كداساً ، وتعدو كلمة القائد قانوناً ، ويظهر المثل القائل « كلام الملوك لا يرد ! » .

وأنتك لترى القرآن يشبع هذه الناحية ، ويبدى فيها القول ، ويعيد ، ويشير إليها مرحلة مرحلة . منذ أن يخطأ القائد فيرى لنفسه خاصة — شيئاً ثم تملكه الأثرة ، وينتابه الغرور ، ثم يندفع إلى التحكم والاستبداد بقوة الغرور من ناحية ، وإغراء الإستسلام من ناحية أخرى « استخف قومه فأطاعوه » حتى يغفل أمره ، وينصب نفسه إلهاً يعبد !

وكما أظهر القرآن الأنبياء أمثلة حية للتجرد من الغرض والتفاني في الدعوة ، والتواضع الكامل ، والموضوعية الشاملة فإنه يظهر هنا الشيطان ، مثلاً صارخاً من أمثلة الداتية والأنانية كل دعواه ، انه من نار ، وأن آدم من طين ، وتبرز خلال هذه الدعوى الوحيدة ، « انا » الملعونة ، وتسيطر على

الموقف فتجعله يفسق عن أمر ربه . وما من صورة هي أعظم تمثيلاً لقوة الذاتية العمياء ودفع الأنانية والأثرة الطاغى من هذه الصورة التى يرسمها لنا القرآن ، ويوضح لنا فيها ملاكا كبيراً تفسده هذه الصفة المقيتة إلى الدرجة التى تجعله يفسق عن أمر ربه ، ويخرج عليه وهو الذى يعرف قوته وجبروته حق المعرفة .

— ٦ —

مسئولية القادة الاجتماعية عن الانحلال : الطغيان

- * قوة الدافع الذاتى والغرور والأنانية .
- * إذكاء جذوة الترف والتعلق من الحاشية والمواقفة الدائمة على الخطأ والصواب .
- * أثر الأساطير التى يلفقها الكهنة والصنائع حول عراقاة الأصول ، وقداسة النسب . وامتيان الدماء . واستحقاق المولود الملكى للرئاسة والولاية .
- * استسلام الشعب إما عن استغفال أو عن عجز أو عن جهل أو عن غير ذلك .
- هذه العوامل القوية التى تتكرر جيلاً بعد جيل تتركز فى نفوس القادة وتصل آثارها إلى أبعد ما يمكن أن يصل اليه الدافع الذاتى ، ألا وهو تأليه النفس ، ومطالبة الناس بعبادتها .
- وليس لنا أن نعجب — ما دام الدافع الذاتى وما يحيط القادة من إغراء يصل إلى هذه القوة — إذا راجعنا صفحات التاريخ فوجدنا عبادة الأبطال والملوك والفراعنة والأباطرة مسودة لصفحات القديم منه فى أربعة

أركان العالم ، والخضوع للملوك والزعماء والقادة ، خضوعاً يقرب من العبادة ، مسودة لصفحات الجديد منه ولا سيما في الشرق .

بل إنه لا يحق لنا أن نعجب لما هو أكثر من ذلك . فالقرآن يوضح لنا أن الأنانية بعد أن تبلغ من الطغيان في نفس صاحبها الدرجة التي تجعله يطالب الناس بعبادته ، تستولى شيئاً فشيئاً على نفس صاحبها حتى تجعله يعتقد أنه بالفعل إله . وقد ضرب القرآن المثل بفرعون مصر ، ونمرود بابل ، وصور مزاعمهما ونفسيتهما ، ونقل أقوالهما . فهذا فرعون مصر يقول : « أنا ربكم الأعلى ! » ويتوعد موسى : « لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » ، ويعجب من هذا الإله الجديد الذي يبشر به موسى ويظنه كاذباً : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري . فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ! » وهذا نمرود العراق يكابر : أنا أحبي وأميت ! ولا يفحمه إبراهيم إلا عند ما طلب إليه ما هو فوق قدرته ، كانسان ، وملك : أن يأت بالشمس من المغرب إلى الشرق !

والتاريخ ، بعد القرآن ، يتحدثنا عن عشرات من الملوك والقيصرة والأبطال عبدوا ، وألهوا ، وظنوا في أنفسهم بالفعل الألوهية . وأغلب الظن أن الاسكندر ، على رجاحة عقله ، كان يرى أن أمه « أولمبياس » إنما حملت منه أثر مخالطة الإلهين العظمين زيوس وأمون !

وحل هذه الظاهرة العجيبة ، ظاهرة تصديق هؤلاء الناس فيما بينهم وبين أنفسهم ، لزعم كهذا واضح البطلان والفساد ، ومنحهم لدنوااتهم صفة لا يجدون من قواهم لها سنداً ، أو دليلاً ، هو مما يلقي بضوء عليه ، علم النفس الحديث الذي يوضح لنا أن ثمة أنواع من الهوس الجزئي تتعلق بناحية خاصة ولا تنتقل

إلى غيرها فالبارانويا « جنون العظمة » تشمل ناحية واحدة فحسب ، والمصاب بها موهوم فيها ، وسليم في غيرها . ويفسر لنا مؤلف « عقلى وعقلك » تلك الناحية فيقول : « إننا نلتقى بناس كثيرين يعيشون في المجتمع ويستمتعون بالكرامة والوجاهة ، أو الثراء والمراكز . تجادلهم فتجد العقل المتزن ، والاهتمامات السياسية أو الاجتماعية ، لهم عائلات يعولونها وأولاد يهتمون بمستقبلهم ، وغير ذلك مما يدل على الحياة السوية الحالية من الشذوذ . ثم تفاجأ يوماً بأن هذا الوجه الذى كنا نعرف فيه أخلاقاً سوية واتزاناً نفسياً ، بل روحاً كريمة ، قد ضبط فى جريمة الشذوذ الجنسى مع صبي قاصر ، ثم تثبت التحقيقات أنه عريق فى هذه الجريمة التى مارسها منذ عشرين أو ثلاثين سنة ، وأن له عادات بشعة فى الشذوذ الجنسى مع الصبيان . وقد استطاع طوال هذه السنين أن يخفى جرائمه لأنه لا يزال متمتعاً بآثرانه يستطيع التفكير الحسن ثم نجد لغيره شذوذاً آخر مع البغايا ، كأن يضربهن ويؤلمهن بما يسمى السادية ، أو يطلب هو أن يضربنه ويؤلمنه بما يسمى المازوكية .

ونجد غيره يميل إلى الجنس الآخر ويتكلف التكاليف الباهظة كي يصل إلى غايته حتى ولو اقتضت هذه الغاية خيانة أصدقائه وتعرض عائلاتهم للتشتت عند ما تنفضح علاقاته الجنسية . وهو يجرى وراء غايته كأنه فى حمى .

فهؤلاء جميعاً وأمثالهم يسلكون سلوكاً عادياً ليس فيه ما يلفت النظر . عواطفهم عادية ليس بها كرب أو ضيق . وتفكيرهم سليم ليس فيه خيالات جنونية . ولكنهم فى ناحية معينة ، يخفونها عنا — أو لا يخفونها — يسلكون سلوكاً غير اجتماعى يؤذى الناس أذى عظيماً .

وأول ما نجد من الصفات عند هؤلاء الشاذين مما يفتح بصيرتنا إلى تفهم حالتهم أنهم غارقون فى ذاتية مسرفة ، ف شعارهم أنا ، أنا ، أنا ، ييغون

النجاح ، وأحياناً يتفوقون وليس للغير أية مكانة في حسابهم وهم على استعداد لأن يدوسوه ، وصفة أخرى تلازمهم هي الاندفاع وجحود العقل . وصفة ثالثة هي نقص الاتزان الأخلاقي والاجتماعي . فالقيم والأوزان الاجتماعية لا تحتل مكانها في نفوسهم فلا يبالي الرئيس السيكوباتي أن يفصل الفراش من وظيفته لأنه أهمل إهمالاً بسيطاً . وأولاد هذا الفراش وزوجته ليس لهم مكان في نفس هذا الرئيس . وصفة أخرى هي أن هؤلاء السيكوباتيين لا يعرفون هدفاً للحياة فهم يعيشون جزافاً وحاضرهم يغمر كل شيء وليس للمستقبل عندهم قيمة كبيرة .

والآن اعتبر أيها القارئ هذه الصفات كلها : ذاتية مسرفة تقول في كل شيء أنا ، واندفاع بلا تعقل ، ونقص في الاتزان الأخلاقي والاجتماعي ، وانعدام الهدف للحياة وإيثار الحاضر .

ومن الواضح أن هذه الصفات تتحقق أكثر ما تتحقق في أبناء الملوك والقادة والمترفين بصفة عامة .

والمهم في هذا كله أن فتح الأبواب لنوازع النفس الدائنية ، يمكن أن يصل بها إلى حد اعتقاد الألوهية . أو على أقل تقدير الإيمان بحق الحكم المطلق ، أو ما نسميه نحن الطغيان ، وما نظن أن هناك من يختلف معنا في أن الطغيان من أقوى أسباب انحلال الأمم ، وقهر الشعوب وجحود الأوضاع ، وإبقاء الكثرة الكثيرة في ظلمات الجهل والفاقة ، حتى لا تفضل الحيوان الأعجم الكادح ، الذي يسيره سيده كما يشاء .

صور القرآن هذا الطغيان عند ما تحدث عن الملوك ، وكيف يجعلون الأعزة أذلة « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة

وكذلك يفعلون» وأشار إلى ذلك الملك الذى يأخذ كل سفينة غصباً ، وشرح فى آيات عديدة مظالم فرعون ، وطريقته الجائرة فى الاستبداد بالناس وتحطيم مقاومتهم وتفريقه بينهم ، وتسليطه طائفة على طائفة ليضمن لنفسه الفوز والانتصار .

« إن فرعون علا فى الأرض . وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين » .

ولنلاحظ فى ناحية أخرى ، أثر نوازع النفس الخاصة وأطماعها الشخصية عندما تتمكن من فؤاد القائد ، وتملك قلبه ، وتسير القضية العامة تبعاً للهوى الخاص .

هذه معركة ، وليس كالمعارك ميداناً تبلغ فيه التضحية غايتها ، وتصدر الداتية وتنزل إلى أقل درجاتها ، والحرب سجال بين المؤمنين والكافرين . ولكن خبراً كاذباً يثقب الأذان : لقد قتل رسول الله ، وهذه الإشاعة تفعل فعلها فى نفوس المسلمين ، تظهر كل فرد على حقيقته ، كبار المؤمنين يستميتون ، ويشير فيهم الخبر نكران الدات ، ويتساءلون « قتل رسول الله ، وما نفعل بالحياة بعده » وكبار المنافقين يعلوهم الروع ، ويركبهم التردد ، وتطفر الأطلاع حتى تغطى جو المعركة ، والتضحية والفناء ، وتصم الأذان فلا تسمع صليل السلاح . وتعمى العيون ، فلا ترى دماء القتلى . وتطمس الضائر ، فلا ترى الرجال يحاربون ويقتلون فى سبيل المبدأ المقدس ، ويستولى عليهم شئ واحد فحسب ، اهتمامهم بأنفسهم ، لا بنجاتها ، وإنما بالاستفادة من هذه المعركة . من الانتفاع وراء القتلى والجرحى نفعاً شخصياً ، وهم الآن أشد ما يكونون طمعاً فى أن يخلفوا محمداً ويرثوا مكانه . ولكن لا يلبث أن يتبين كذب الخبر ، فيؤخذون ، ويفشأون غيظهم بالتنديد

بقتل من قتل ، والادعاء أن لو كان لهم من الأمر شيء « المسألة التي لا تنسى هنا أيضاً . والتي هي أصل كل شيء » ما قتل من قتل ! والله يعلم أن لو كان لهم من الأمر شيء ، لأوقعوا بالجيش الهزيمة ، ولأسرعوا بالاستسلام ولباعوا النصر ، والجنود ، والشرف في سبيل سلم يعطيهم الرئاسة الهزيلة المذلة ، من يد العدو ، وعلى جثث القتلى ، ولوقعت عليهم مسئولية الانحلال .

والتاريخ حافل بأسماء قادة انخذلوا عن جيوشهم قبيل الانتصار لوعده مناهم به العدو ففضلوا خسة الخيانة . . . على رفعة الأمانة . لقد خان « بلطجي باشا » الترك في سبيل رشوة مالية وغرامية من كاترين ! فأفلت الجيش الروسى وعلى رأسه بطرس الأكبر بعد أن تقطعت به الأسباب . . . وانتفت منه الأموال ، وأقنذه من الهلاك الحقيق ، ليكون العدو الأكبر لتركيا . وقد خان خيرى بك ، قائد الغورى ، الجيش المصرى فى موقعة مرج دابق ، فسلم للترك ، وأصبح أميراً على مصر . . . وخان صنائع الحديدى توفيق عرابى ، فقادوا الانجليز ، فى مذبحه التل الكبير . . . لينهوا الاستقلال ، وليبدأوا الاستعمار ، وماذا يضير « سعود » ، و« خنفس » ، و« سلطان » وأمثالهم ذلك ما دامت الرشوة جنبات ذهبية صالحة للتداول عليها رسم القديس جورج !

ذلك كله ، لأن شيطاناً هجس فى نفس هؤلاء القادة « هل لنا من الأمر من شيء . . . ؟ » وارتفع ، ودوى حتى غطى جو المعركة ، وأخرس صوت الضمير . . . فأصبحت المعركة صفقة تجارية ، إنهم يستطيعون قبض الثمن الذى يحبون بحركة واحدة ، فيالها من صفقة !

- برزت الأنانية والذاتية ، فى أعظم ميادين الفداء والموضوعية خفت الهزيمة .

هكذا يصور القرآن الموضوع « وطائفة قد أهتمهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، قل إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا » .

— ٧ —

مسئولة القادة السايية عن الانحلال

رفضه الدعوات الإصلاحية ومهربها

وفي الناحية السلبية نلن أثر الداتية في رفض القادة لكل الدعوات الجديدة وصم الآذان عن سماعها ، ومحاولة عرقلة تقدمها بكل الطرق ، وهو التصرف المنتظر الذي يملية عليهم كلا من الحرص والعجب ربيبي الداتية المسرفة: الحرص الذي يجعلهم يتشبثون بوضعيتهم الممتازة التي تمنحهم خصائص ومزايا ليست لغيرهم — لا يريدون لها انتقاصاً ، ولا ييغون عنها حولا . والعجب الذي يجعلهم يحصرون في أنفسهم وذواتهم كل شيء ، ويرفضون كل خير يأتي عن غير طريقهم أو يعود أثره على غيرهم . فإذا قام رجال ونساء من سواد الشعب بدعوة إصلاحية لأية ناحية من نواحي الحياة ، فهذه الدعوة مرفوضة مقدماً ، ومرتين : مرفوضة مرة لأن الإصلاح العام لا يعينهم ، بل هم يخافون أن يخيف عليهم ، وينتقص منهم ، ويظهر الفساد في زعمهم « ذروني أقتل موسى وليدع ربه . إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ! » .

وهي مرفوضة مرة أخرى لأن هؤلاء القادة الأنانيين لا يستطيعون أن يتصوروا أن يقوم بدعوات إصلاحية ، رجال ونساء من عامة الشعب

ونسائه ١ . واحتكارهم لكل ما هو نفيس وطيب يجعلهم يرفضون الإيمان بدعوة يقوم بها غيرهم كائنة ما كانت ! ويظنون أن كافة الرسالات ، إنما هي وقف عليهم — حكر لهم — « وقال الدين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ! » « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ » « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا » « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ . » « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . . وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » « أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه . . ولم يؤت سعة من المال ... » « ألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر » .

فإذا أرادوا أن يهربوا من تبعة الناتية هذه ، لاذوا بما لا يعد مهرباً منها ، ادعوا أنهم يتبعون آباءهم ، ولا يقبلون تغييراً ولا تبديلاً لما وضعه هؤلاء الآباء المقدسون ! « إنا وجدنا آباءنا على أمة . . وإنا على آثارهم مهتدون . . وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة . . وإنا على آثارهم مقتدون . . قال أولو جئكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم . . قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » « قالوا أجئتنا لنتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض . . » .

ومن الواضح ، أن هذه الأقوال نفسها مفعمة بآثار الناتية والأناية ،

الخافية والمعلنة ، في المعنى وفي المبنى ، فهم يظنون أن الرسل تأتي لتلفتهم عما وجدوا عليه آباءهم ، ويبنون على هذا أن تكون لهم الكبرياء ! .

وهذا ما ينم على أنهم إنما يتمسكون بتراث آباءهم لأنه يذلل لهم أعناق الناس ! ويمكن لهم من الكبرياء ، وهو ما يفسر ، مجابتهم الأنبياء بالرفض بعد أن يعرضوا عليهم ما هو أهدي مما ترك آباؤهم ، فهو تحايل على تحقيق فكرتهم الاستثنائية . وتقديس الآباء بعد ذلك تنفيذ للداتية وربط بين الدات ، والموضوع ، بل تعليق الموضوع على الدات ، تعليقاً يؤدي إلى تأليبها ^(١) ! وعبادة الآباء والأجداد في نظرنا أفصح أنواع الوثنيات لأنها تجسيم بشري ليس فيه أي رمزية ، والكفار الذين يتعللون بآبائهم ، المحترمين المقدسين ، بين أمرين الأول أنهم ينفذون الداتية لحسابهم الخاص . وما الآباء إلا ستار ووسيلة وادعاء ، والثاني أنهم ينفذونها ، لحساب آباءهم ، ففي كلتا الحالتين هناك تنفيذ لداتية القيادة . والانتفاع من هذا التنفيذ — في الحالتين أيضاً — يعود على أصحاب هذه الدعوة ، مادام آباؤهم قد ماتوا ، وهم الورثة !

ولغلبة الداتية على نفوس هؤلاء القادة . فإن فكرة الصحة والأفضلية التي تلتزم الإيمان أو التبعية لا تقوم في أفهامهم على موضوع ، ولا على صحة هذا الموضوع ، وإنما تقوم على الأشخاص وصفاتهم الداتية وأوضاعهم المادية من جاه أو نسب أو ثروة ، أو رواء . ولما كان الأنبياء والمصلحون عادة من أوساط الناس وفقرائهم ، ولما كانت ميراثهم ميراث موضوعية كالصلابة ،

(١) يرى العلماء أن تقديس الآباء كان الأصل الذي عنه نشأت عبادة الآباء ، ثم الأوثان ، ومن أجل هذا حرم الاسلام تقديس الآباء والأجداد تقديساً دينياً واستنكر الحلف باسمهم . وحذر من بناء القبور المشيدة أو التماس الشفاعة أو غير ذلك من الحبال التي تقود إلى الشرك .

والأمانة ، والشجاعة ، والإخلاص ، فإن هؤلاء القادة يرفضون دائماً هذه الدعوات . وبينما يدعوهم الأنبياء على أساس موضوعي هو أنهم على بينة ، كما قال صالح « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي » ، أو ينادونهم كتاباً ، أو هدى ، أو علماً ، أو حتى « أثارة من علم » « إيتوني بكتاب قبل هذا أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين » اذا بهم يرفضون بحجة أن القائمين على هذه الدعوات أناس من عامة الشعب وأتباعهم من سواده ، وترسم علامات الدهشة العميقة عندما يدعووا إلى الإيمان على يد هؤلاء ويتساءلون .

« أنؤمن لك ؟ واتبك الأرذلون ... » .

« أنؤمن كما آمن السفهاء ... » .

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا . وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا باديء الرأي » « أتى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال » « قالوا يا شعيب ، ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك » .

فكان الدعوة أو الرسالة ، نادياً عاماً يتحامونه ، إذا دخله الفقراء ، ويأثفون من غشيانه ، ويرفضون أن يدعووا إليه ، لا سيما وألفاظهم عن سواد الشعب وقرائه تتم عن مدى احتقارهم له .

وهذا لا يمنع من أن تذيب الأطماع هذه الارستقراطية المدعاة كما تذيب النار معدنا خسيساً ، وتعيدها إلى أصلها النفعي الصغير ، فيلتمس هؤلاء القادة المترفعون الأرباح المادية من سوق الدعوات ، ويطلبون من النبي مقدماً ، وعداً وتقديراً ، ثم إنهم ، تنفيذ مطالب مما يطلبها الناحيون من المرشحين كإقامة كوبرى أو إنشاء سوق أو مد المياه إلى الدائرة أو وصلها بالسكة الحديد ... الخ .

« وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى في الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذير أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها . وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً » .

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف . . . الخ » .

وأغلب الظن أن تقديمهم هذه المطالب لا يعنى استعدادهم الاذعان جيداً لو تحققت لأنهم في أكثر الحالات يفجأون الرسل بزهدهم فيهم ، وعجزهم عن فهمهم ، « سواء علينا أوعظت أو لم تكن من الواعظين » « لا نفقه كثيراً مما تقول » « قالوا يأنوح قد جادلنا فأكثر جادلنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » أو يطالبونه بكتاب جديد كأنه هو الذى يقرر هذه الكتب — كما يقررون هم افتياتاً على الناس . ومخالفة لأصول القيادة — مصائر الشعوب « ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى أن أتبع إلا ما يوحى إلى » .

ومع ذلك فإن ذكر القرآن لمطالبهم السابقة من الأنبياء . من كنز أو جنة ، أو تفجير الأنهار أو بيت من زخرف يعرض لنا التصورات الصغيرة لهؤلاء الناس عن الدعوات وتفكيرهم الضيق المحدود . وآمالهم المادية ، وارتباط الناحية الذاتية والمادية بالعقيدة .

والعلامة الوحيدة التى تبدو وكأن فيها لمحة من التفكير ، أو إثارة من موضوعيه ، هى تساؤلهم عن البعث بعد الموت ، وعجزهم منه « إذا متنا

وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون ، وأبأؤنا الأولون » « إذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً » .

ولكنهم فى الواقع لا يصدرن ذلك عن تفكير ، لأن القرآن قد دفع الحجة بالحجة ، ووضح لهم بالأمثلة والبراهين صحة ذلك فلو أن عجبهم كان علامة تفكير لسلموا للمنطق القوى والحجة البالغة ولكنهم يصدرونها عن استهتار وسخرية وجمود على ما هم عليه من الوضعية الممتازة التى تتيح لهم السعادة والملاذ فهم لا يريدون لها تغييراً . ولا يبغون حياة أخرى لا يعلمون حظهم فيها . أو تقتضيهم الراحة فيها أداء الواجبات الدينية . ولما كانوا قد بلغوا الغاية التى يطمع فيها المؤمن فى الجنة ، فهم لا يرجون وراء الموت شيئاً آخر وإن كانوا يعملون وسعهم لتأخيرهِ حتى يستمتعوا أطول مدة ممكنة بسعادة الرئاسة وما تتيحه لهم من بلهنية وسعادة . ويصل استغراقهم فى عالمهم الداتى ودأثرتهم الطبقية إلى الدرجة التى تجعلهم يرون حقائقها الزيفة بديهيات صادقة فيرفضون التفكير فيها ، كما رفض الألى التفكير فى كروية الأرض أو دورانها حول الشمس ، وهذا وذاك من استهتار وجمود يدلان على تأصل الداتية لأن الانسان لا يحمّد على ما هو عليه ، ولا يستعظم ، ما ليس هو فى الحقيقة عظيماً إلا لأنه عاكف على نفسه ، منصرف إليها ، زاهد فى كل ما عداها من معرفة خارجية أو ثقافة عامة طالب — فحسب — للنوع الذى يهواه ، والذى تميل إليه نفسه ، لا الحقيقة حيثما تكون وأياً ما تكون .

وهكذا يتضح لنا أن الاثارة الوحيدة التى تبدو وكأنها تفكير ، أو تساؤل موضوعى إنما هى أثر من آثار الداتية وما يحوطها من جهل وجمود واستهتار .

وقد يظن القارىء أنهم لتفكيرهم المادى يؤمنون عند ما تفحمهم المعجزات

أو — بالأصح — يسلون ، لأن الذى لا يؤمن إلا بمعجزة إنما يكون مأخوذاً بحجة مادية وبرهان معجز ، ومرغم من قبل حواسه على الإيمان ، ولكن الأمر لدى هؤلاء القادة غير ذلك فهم يطلبون المعجزات ، تعجيزاً . فإذا حققها لهم الأنبياء ، وتمت أمام أعينهم واستيقنتها أنفسهم جحدوها ، ورفضوا التسليم بها ، بل وهم فى حالات أخرى يرفضون مقدماً كل معجزة مهما بلغت من الروعة والإعجاز ، فإذا تابعت فلا يعدمون الوقاحة والمكابرة التى تجعلهم يقولون « سحر مستمر ! » .

* وقالوا مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها ما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا ، وكانوا قوماً مجرمين .

* وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم ، وكل أمر مستقر .

* ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون .

* فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين .

* ولو أنزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين .

* ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله . ولكن أكثرهم يجهلون .

* وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . وإن يروا سبيل الرشـد لا يتخذوه سبيلا . وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا . وكانوا عنها غافلين .

ولم يكن التكرار في إيضاح هذا المعنى عبثاً من القرآن فهو يريد أن يوضح لنا مدى التعنت الذي ساقهم إلى الغرور والاستغراق والجمود .

هذا التعنت والاستحالة التي قطع بها القرآن توضح لنا أنهم . أولاً وآخرآ لا يريدون الهداية ، ولا ينشدون الحكمة ولا ينتغون الأدلة على صدق الرسل ، وإنما هم يريدون أنفسهم وحدها . وما دام الأنبياء لا يؤيدون هذا الدين الوثني الشخصي — عبادة النفس — فإنهم رافضونهم ، ومعجزاتهم ، يفضلون أن تسقط السماء عليهم كسفاً أو تمطرهم حجارة ، ويموتوا ميتة الكبراء المكابرين على أن يعيشوا عيشة المؤمنين المسلمين !

بل إنهم أكثر من ذلك على اعترافهم بالخطأ عند تكشف الحقيقة الرهيبة يوم القيامة . وندمهم أمام العذاب الأليم . فإنهم لو ردوا إلى مثل حياتهم الأولى لعادوا إلى ما كانوا عليه ! وبعد أن كان القرآن يوجه الخطاب في تساؤل « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » فإنه يحزم في آية أخرى « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه . وإنهم لكاذبون » .

وليس هناك ما هو أقوى تصويراً لسيطرة الوضع على الفرد من هذا الفرض الذي يحزم به القرآن ، ويوضح لنا به أن الأمر في الحقيقة ليس مسألة إرادة بشرية . لأن الإرادة البشرية — في الأغلب الأعم — تتأثر بالوضعية المادية والاجتماعية والسياسية التي تحيط بها .

وليس معنى ذلك إعفاء أشخاص الأفراد من المسؤولية لعدة أسباب منها

ما ذكرناه في الفصل السابق عن المسؤولية من كفاية الفطرة الإنسانية لمعرفة الخير والشر لو لم يفضل الانسياق في تيار الشهوات . ومنها أن الفرد يتفاعل مع الوضع . فقد يكون القادة أوضاعاً ، وهذه الأوضاع نفسها هي التي تكيف الأجيال التالية من القادة . كما أن الأوضاع إذا كانت المكيفة دواماً ، فإن هذا يخلق نوعاً من الحصانة والمناعة ضد تكيفها .

طوائف أخرى من القادة

تعرض القرآن لطائفتين من القادة ، ليسوا ملوكاً ولا أمراء ، ومع ذلك فلولا هم لما كان تدبير الملوك محكماً ، ولا إفسادهم شاملاً .. هما : رجال المال .. ورجال الدين .

ومن العسير أن تفصل بين مسئوليتهم في الانحلال أو أن نفاضل بين أنصبتهم فيها ، فهم جميعاً يمثلون القيادة ، وقد رمز إليهم القرآن بفرعون وهامان وقارون وهو تمثيل بلغ غاية الإعجاز لأن المجتمع الفرعوني القديم لم يكن أول المجتمعات العريقة التي ظهر فيها تماسك هذا الثلاث فحسب بل إنه أيضاً كان المجتمع الذي وصل فيه ضغط الأمراء والأغنياء والكهنة غايته ، حتى أمكن تشييد الهرم الرمزي للمجتمع المصري .

ومع أن اتفاق جبهات القيادة الثلاث هو أمر مشاهد في كل المجتمعات ، إلا أن ظهوره كان في مصر القديمة أشد توثقاً وتمسكاً . فلما كان الفرعون ممثلاً للآلهة ، بل هو نفسه إلهاً ، فقد كان في حاجة دائمة إلى الكهنة ليصوغوا الأساطير التي تخدع الناس ، وتزييف عليهم العقيدة وتستغل سذاجتهم أسوأ استغلال . وتطلع عليهم كل آونة ، من الأساطير والتقاليد ،

والتحليل والتحرير ، بجديد يحفظ القديم ويقيم الرث ، ويبدد ما عسى أن يكون قد نجم من شكوك أو شبهات ، وقد قام الكهنة بذلك خير قيام من وجهة نظرهم ، وشر قيام من وجهة نظر الشعب ، لأنهم جعلوا محور عملهم الابتزاز بشق الأسماء الكهنوتية من هبات أو أوقاف أو ندور أو قرابين أو ضحايا أو غير ذلك مما كانت بطونهم ، ويوتهم هي مآلها .

وكان الفرعون من ناحية أخرى ، وبمقتضى الإرادة الرحيمة العادلة لآله آمون - رع ، مالكا كل رقاب الأحياء ، وكل الشعوب . وكل الأرضين التي تغشاها دورة الشمس ! فلم تكن أرض مصر كلها إلا جزءاً من ثروته ، ولما لم يكن يستطيع أن يستثمر هذه الثروة بنفسه فإنه وكل استغلالها إلى قارون وأمثاله ليستغلوها له (وهو يماثل الملتزم في العهد الوسيط . ومتعهدوا الحكومة في العصر الحديث) . ووجد هؤلاء - فيما بينهم وبين أنفسهم - إنهم يستحقون جزءاً - يتسع حسب ذمتهم - من هذه الثروة التي شاءت إرادة الإله الرحيم آمون رع ، أن تكون خالصة للفراعين ، فتكونت لهم من الفقات ، والاختلاسات والإضافات على الفلاحين ، ثروات ضخمة وهكذا تلاءمت أطراف المثلث . وجبكت خيوط المؤامرة ، وألقيت الشباك على الشعب المسكين من ثلاث شعب ، فالملوك ومن يتبعهم من أمراء ونبلاء الخ ، يحكمون بقوة النظم الإدارية والسياسية . والأغنياء يمدونهم بالوسائل والإمكانات التي يتيحها المال . والكهنة يضعفون مقاومة الشعب ويتصرفون هداماً وتخريباً في روحه المعنوية ويكتبون إرادته وحرته بشبكة الأوهام والخزعبلات ، والأساطير ، وبمضى المدة امتزج العمل الاستبدادي بعضه ببعض وأصبح لكل واحد من هؤلاء ثلاث صفات ، فالأمير ، كاهن وغنى . والكاهن ، أمير وغنى . والغنى كاهن وأمير .

على هذا النوال ظهرت كل الحكومات ، على اختلاف يسير في نسب الاستغلال ودرجاته ، وسار ركب البشرية ، مكدوداً مرهقاً تقيد خطوه القيود ، وتقبل كتفيه الأحمال والأعباء والأوزار مما أبطأ تقدمه ، وقصر خطواته ، وما أكثر ما يضيق الباحث التاريخي الذي لم يلم بهذه الأوضاع ، بالبشرية قاطبة ، ويحكم بأن الإنسان حيوان بليد غبي ، ويتساءل كيف أنه لم يستطع بعد جهد آلاف السنين أن يبلغ تقدماً حقيقياً ، وكيف أن تسعة أعشار الشعوب لا تزال قطعاناً بشرية جاهلة فقيرة بلهاء ، تمتص خيراتها في السلم وتسفك دماؤها في الحرب وتساق كما يساق القطيع .

ذلك أن الإنسان لم يتحرر من وحشيته وفرديته إلا ليستبعد لما يبدو شراً من الوحشية الأولى ، والفردية البدائية . سقط بين أنياب المجتمع المقترس وحاطته قوانينه ونظمه كأيدي أخطبوط عاتى ، فأصبح هو نفسه ضحية ، بعد أن كان مضحياً . ومجنياً عليه بعد أن كان جانياً ! ووسيلة بعد أن كان غاية ، ووجهه ثالث القيادة وجهة التقدم الجماعى ، وعمل على أن يركز هذا التقدم فى الميادين الجماعية لأن ذلك هو السبيل الوحيد الذى يستطيع به القادة الهيمنة عليه ، وبالتالى استثماره ، فظهرت الدول بميزانيات ضخمة وجيوش لجبة ، ومصانع هائلة ، وقوانين مفصلة دقيقة ومعابد ممردة شاحخة ، ولكن ما قيمة ذلك كله للأفراد ولعامه الناس ؟ إنها تهم بالدرجة الأولى القادة الذين يهيمنون عليها ، ويقطفون ثمراتها ، ويشرفون على توجيهها فيزانية الدولة خزائنها ، وجيوشها حرسهم ، ومعابدها مقابر خيلائهم ، وقوانينها وسائل بطشهم المشروعة ، ومصانعها طرق الإثراء السريع . حتى المدارس عندما تخضع لهذا التركيز تصبح محاضن بشرية لإعداد العبيد ، والخدم والحشم والأتباع والموظفين ... وحشو المدافع .

إن الشعوب في عصرنا الحاضر ، تشبه على أحسن الفروض أصحاب الأسهم في شركة مساهمة ، فهم يدفعون ثمرة كدهم وجدهم السنين الطوال ، وادخار عمرهم كله وذخريهم الذي يعدونه للشيخوخة ، لأيد لا يعلمونها ، بقوة الائتمان وبالتقة في الأسماء المشهورة ، وبعدها عن مظان الريب دون أن يخالجهم الشك في أنه — كما يقول المثل — « القلط على باب الكرار » ثم يدعون كل سنة مرة ليسمعوا — في ساعة أو نصف — ما يريد المديرون المقتدرون ، والعلميون ببواطن الأمور ، لهم أن يسمعه ، ويقدمون إليهم ميزانية ، يقوم بمراجعتها بيت مالى مشهور كالشركة نفسها ، كأن في هذا ما يبعث على الاطمئنان !! والميزانية عادة تتحلّى بثلاثة صفوف من الأرقام ملاليميا ، والله يعلم مقدار التبذير والاختلاس ، تحت أسماء مشروعة ، كالمهايا أو المكفآت أو الاحتياطات أو غير ذلك مما هو للشركة ، كالأموال السرية للدولة . فكيف يمكن للمساهم الصغير أن يفهم شيئا وسط هذه الألغاز التي يقدمها له ، ويفتن فيها ، الخبراء المختصون ، ويأخذون منه لقاء ذلك أجراً باهظاً ؟ وحتى لو فهم فماذا يستطيع أن يفعل أمام المساهمين الكبار ، ووسط المأجورين والصنائع ، والخطط التي ترسم في الخفاء ، وطرق الدعاية والتأثير التي تتخذ لمجاهة أى تمرد محتمل .

لقد ظهر في العالم مصلحون ، وعلماء ومجاهدون قلائل ، ومن قبلهم أنبياء أقل منهم . وإلى هؤلاء وأولئك يعود الفضل في النصيب الضئيل من التقدم والتحرر الذي ظفرت به الإنسانية . وكان لنا أن نطمع في تقدم أعظم أضعافاً مضاعفة لو هيمن على شؤون العالم الأنبياء بدلا من الملوك ، والفلاسفة بدلا من التجار ، والعلماء بدلا من الكهنة ، ولكن إرادة الله اقتضت حكم الملوك ، والتجار ، والكهنة ابتلاء للشعوب واستنهاضاً لهمتها ، وإيقاعاً للمسئولية على هذه الطوائف من القادة .

مسئولية الكليروس والسيبرخ عن الانحلال

وصل الأغنياء والكهنة إلى درجة القيادة وأصبحوا مسئولين مسئولية الملوك والأمراء لأن قوة المال بالنسبة للأولين والقيادة الروحية بالنسبة للآخرين قد جعل لهم من النفوذ والهيمنة ما للملوك والأمراء . فهم يؤثرون أثراً مباشراً . بمعنى أن الغنى أو الكاهن كثيراً ما يشغل وظائف القيادة المسئولة لماله أو لكهنته ، فيشغل وزارة المالية — كما في امريكا — أحد كبار رجال المال والأعمال ، كما يشغل رئيس أساقفة كنتربرى الدرجة الثالثة بعد الملك ورئيس الوزارة ، وسيان هيمنوا بمجرد نفوذهم أو ثرواتهم ، أو أدت الثروات والنفوذ إلى جعلهم أمراء فإنهم في الحالين مسئولين مسئولية كاملة .

وفي فترات الانحلال تكون الامره بالنسبة للأمر ثروة وتكون الثروة بالنسبة للغنى إمرة « أتى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال » وتكون الكهانة بالنسبة لرجال الدين وسيلة للالتين ! والأمير يصل إلى الثروة طريق امارته ، والغنى يصل إلى الأمانة بفضل ثروته ورجل الدين يصل إلى الأثنين ، القيادة والثروة باسم الأديان المفترى عليها ! وذلك ما يجعل مسئولية رجال الدين ثقيلة مضاعفة ، بل مثلثة ، فهناك مسئوليتهم العامة كرجال دين ، وهناك مسئوليتهم كأمراء ، أو أغنياء ، أو هما معاً . وهم يبلغون ذلك في كثير من الأحوال ، ثم هناك ثالثاً مسئولية أخرى ، هي المسئولية الخلقية الخاصة بهم [وهى غير المسئولية الدينية العامة] وتلك المسئولية الأخيرة الخاصة بهم تولدت من أن الناس تنظر إلى رجال الدين نظرة خاصة ، لأن مصدر قيادتهم — وهو الدين — إنما بنى

على مكارم الأخلاق . واتصلت أسرته من أقدم العصور بالضمير فإذا تحلل خلق رجال الدين انهار إيمان الناس بقدرة وازع الضمير وقوة القيم المعنوية . وسقط الملاط الذي يربط أعمالهم وأقوالهم . فتهافت إلى قرار المادية البغيضة والأثرة المقيتة . وتاريخ روما أصدق مثال لذلك . فقد صارت في فترة من فترات تاريخها بؤرة من بؤر التحلل ، وعبادة الغرائز . والإفراط في الشهوات والقسوة والاستغلال ، وانقلب القسس إلى قوادين ولصوص وقتلة ، ذلك لأن البابا كان في هذه الفترة اسكندر بورجيا ، السفاح الداعر المشهور ! على أنه ليس من الضروري ، لكي تفسد الأمة ، أن يصل رجال الدين إلى ما وصل اليه اسكندر بورجيا . فيكفي أن تنتشر تلك الفضيحة من الرذائل فضيلة الملق ، والرياء . والتزلف . ولرجال الدين — في كل العصور تقريباً — كتب منشورة تمتلئ صفحاتها بصور الملق والرياء ، واستغلال اسم الله ، ومظهر القداسة في ابتداع الصيغ الدينية . وستر الفضائح الدينية والدعاء للملوك الأمراء بالحفظ والدوام !

وتختلف مسئولية الكهنة في الأديان الوثنية عنها في الأديان السماوية ، لأنهم في الأولى ابتدعوا الآلهة ابتداعاً وزيفوها على الناس تزيفاً لينفذوا أغراضهم باسمها ، ويحققوا مآربهم تحت ستارها ، ويتولوا الحديث عنها وهي أحجار صماء لا تنطق^(١) ويضيقوا الحرية الواسعة ، ويحرموا

(١) لكي يأخذ القارئ فكرة عن دور الكهنة في ذلك لا نرى بأساً بإيراد الوصف الذي دونه الأستاذ اسماعيل مظهر في كتابه « مصر في قيصرية الاسكندر المقدوني » لوثن الإله آمون بمعبد سيوه . وهو الوثن الذي استوحاه الأسكندر الأكبر وزاره « كان الوثن كغيره من أوثان التنبؤ مجبولا بحيث يحدث عدداً من الإشارات فيحرك =

الحلال الطيب . يرمون وراء ذلك التحكم في الناس ، ورفع عصا التحريم والتأديب فوقهم دائماً حتى لا ترتفع رأس باحتجاج . فإذا لمسوا ضيقاً أو مللاً أو بؤساً ثورة مكتومة من التضييق أقاموا الحفلات الدينية وجعلوها منفشاً للغليظ المكتوم .

بهذه الطرق وأمثالها استطاع الكهنة أن يجدوا لأنفسهم عملاً لا كد فيه ولا عناء ، وهو مع ذلك أربح الأعمال ، وأثرى الأشغال حتى زاحموا الأغنياء وفاقوهم واستأثروا بخيرات الجماهير الكادحة وطيباتها التي يقدمونها إلى الآلهة بصفتهن سدنتها والقوامين عليها واستباحوا أن يأخذوا ثمناً للشفاعة وأجرأ للغفران كما كان يفعل البابوات .

وصارت لهم زعامة تتضاءل أمامها زعامة الملوك وتأخذوا سمت القداسة فسمت لهم الشعوب الساذجة وألحقتهم بالآلهة ، أو كادت ، وأصبح الكهنة أنصاف آلهة ، كلامهم مقدس وشخصيتهم مصونة .

ومن هنا نعرف كيف أن التوحيد كان ضربة كبرى للكهنة الوثنيين بقدر ما كان نعمة عظيمة للشعوب ، لقد حطم القرآن الأصنام وسواها بالأرض فسقط معها سدنتها وتساووا بالناس وفقدوا مصادر سلطتهم وأوصل الإسلام

رأسه أو ينوح ذراعيه أو يشير بيديه . وكان يعهد إلى كاهن أن يشد الحبل الذي يحرك الوثن ثم ينطق بالنبوءة . وكان الكل يعرفونه معرفة نامية . ولكن لم يدر في خلد أحد أن يتهمه بالغش أو يرميه بالخداع . ذلك بأنه الأداة التي يستخدمها الإله وبالأحرى آلة مسيرة وكان الروح يلبسه في برهة خاصة فيحرك الوثن . كما يحرك شفتي الكاهن بما يريد أن يقول . فالكاهن يعبر بيديه وصوته ولكن الإله هو الذي تقدر أعماله وبوحي إليه بما يتفوه من كلمات .

العبد بالله مباشرة دون حاجة إلى شفيع ، فانتفت منهم صفة الشفاعة والقداسة والاتجار بالأديان ، والتحكم في المصائر الأخروية وأصبح عليهم أن يعملوا عملاً منتجاً ، كالفلاح والصانع والتاجر . فلا عجب إذن أن تشمئز قلوبهم إذا ذكر الله وحده .

وقد حمل القرآن على هؤلاء الكهنة حملات شعواء مسببة . أشار فيها إلى خلق الآلهة المزعومة ، وإلى التحريم والتحليل افتراء ورغبة في التحكم ، وتحدث عن يوم الزينة الذي استرهبوا فيه أعين الناس ، والشركة المزعومة بين الآلهة والكهنة . وهى الغرض المنشود والوسيلة التى استطاع بها الكهنة ابتزاز أموال الناس . وذكر أمثلة متعددة من التحريمات والطقوس ، ما أنزل الله بها من سلطان .

* ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثهم لا يعقلون .

* وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً وقالوا هذا لله بزعمهم . وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائنا فلا يصل إلى الله ! وما كان لله فهو يصل إلى شركائنا ! ساء ما يحكمون .

* وقالوا هذه أنعام حرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرث حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون .

* أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .

أما مسئولية رجال الدين في الأديان السماوية فتأتى من التبديل والتغيير في كلام الله ، وإخفاء الكتب المقدسة ونصوصها ، وإظهار الكتب المساعدة والشروح ، والمغالاة في الدين مغالاة لم يقصد بها وجه الله أو الدين وإنما قصد بها رفع شأنهم وتضخيم نفوذهم ، ومضاعفة سلطاتهم ثم الاختلاف والتفرق والتعصب للآراء الفردية حتى تكون سبباً في تفرقة الأمة ، وتمزيق وحدة الشعب . وأخيراً فكرة الشفاعة التي أوجدوها إيجاداً ، افتراء وتطفلاً على الوحدة الخالصة ، لتبرير وجودهم المهني وارتزاقهم من الدين . فالشفاعة في الأديان السماوية هي كالسدانة في الأديان الوثنية . وليس هناك فرق بين سدنة آمون — رع ، أو « دلفي » ، وبين القديسين الذين ابتلت المسيحية بهم ابتلاء حتى أصبح لكل بلد أو قرية أو مجموعة « شفيعاً » منهم توقف علاته الأوقاف الكثيرة . . .

أشار القرآن إلى كل ذلك عند ما تحدث عن الإكليروس المسيحي والكهنوت اليهودي :

* قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من الدين فجعلتم منه حراماً وحلالاً والله آذن لكم أم على الله تفترون .

* ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب . هذا حلال وهذا حرام . لتفتروا على الله الكذب . إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون .

* إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله . ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون .

* اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً . لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون .

- * يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق .
- * يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم . ولا تقولوا على الله إلا الحق .
- * يجعلونه في قراطيس تبدونها . وتخفون كثيراً .
- * وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم . ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم . وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب .
- * ثم قمنا على آثارهم برسنا . وقفنا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها . ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها .
- * إن كثيراً من الأتجار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل .
- وفي الناحية السليبية يلوم القرآن رجال الدين على كتمانهم للشهادة وعدم قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهي الرسالة الاجتماعية الكبرى التي وكلها الدين إليهم . وجعل بها قوام الأمر كله .
- * وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه . فنبدوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشتررون .
- * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق . وأتم تعلمون
- * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون .

مسئولية رجال المال عن الانحلال

من السهل أن ندرك أن العداوة التقليدية بين الدين والمال هي عداوة وجيهة ، لها مبرراتها . إذ أن كلا منهما يمثل فهماً للحياة يختلف أشد الاختلاف عن الآخر . فالدين رمز المعنويات ، والإيثار ، والموضوعية ، والحياة الآخرة . والمال رمز الماديات ، والأثرة ، والذاتية ، والحياة الدنيا . لذلك كان طبيعياً أن يقف كل واحد منهما في مواجهة الآخر ، وأن يخيّر الإنسان بين أحدهما ، لأنه لا يستطيع أن يخدم سيدين : الله ، والمال .

ولكن ما من شك في أنه — من ناحية أخرى — لا يمكن اطراح مسألة المال نهائياً من المجتمع ، ولو حتى من وجهة نظر الدين . وقد يكون حقاً — كما يقول الإنجيل — إن دخول الغنى إلى ملكوت الله ، أصعب من دخول الجمل في سم الخياط . ولكن يبقى بعد ذلك موقف الغنى في ملكوت الله الأرضي — لا السماوي — وتنظيم حالة من يوجد لديهم قدر متواضع المال ، لا يمكن معه أن يسموا أغنياء .

وهنا تبدو لنا روعة القرآن ، فهو يحلل الطيبات من الرزق ، ويبسح بلهنية العيش والاستمتاع بما فيها من زينة ، ولكنه يحمل على « الوازع » للمادى ، ذلك الوازع الذى يجعل همه ، سلبياً ، الشح ، وإيجابياً التكاثر . ويعنى بالبواعث النفسية التى تدفع الإنسان إلى التكالب على الثروة ، ثم يصوره ، وقد ظفر بها ، فظفرت به ، واسترقت روحه ، ومسخته ، فإذا هو شخص آخر في فهمه للحياة ونظراته للأشياء ، وسلوكه مع الناس .

ويصور لنا القرآن أثر هذا الوازع المادي ، وهو يقرن الأموال بالأولاد ، بل هو يقدم الأموال على الأولاد . ويشير في أكثر من سورة إلى حب المال الذي يملك قلب الإنسان « إنه لحب الخير لشديد » « وتحبون المال حباً جماً » ويلبس الضراوة التي يثيرها في النفس جمع المال واكتنازه وما يحالجه من اعتزاز وإسراف وطغيان ، « إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » وكيف يلهي المال الناس عن كل شيء حتى تفجأهم القبور « الهالك المتكاثر ، حتى زرتم المقابر » وهو يبدى ملاحظة دقيقة : ان إحساس الغني المفرط بثروته واعتنازه بماله . واعتقاده بقوته السحرية يصل إلى الدرجة التي يعتقد فيها أن المال سيهبه الخلود . وسيقربه إلى الله . وسيعفيه من السؤال والعقاب الذي يطبق على الفقراء ، بل يعفيه من المسؤولية كلها « الذي جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخله » « وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ، وما نحن بمعتدين » .

وقدم القرآن عدة صور وصفية بلغت الغاية من الدقة والروعة ، للإنسان عند ما تتملكه سورة المال ، فهذا رجل تعجبه حديقته الفيحاء وأرضه الخصبة وما سندر عليه من مال وفير ، فيقدر نفسه فوق قدرها ، ويشير هذا الإسراف في التقدير في نفسه نشوة بل جنوناً ، فيعتقد أن أمواله لن تفي وإن حديقته لن تبيد ، وإذا كان كذلك فسيخلد ، وإذن لن تقوم القيامة ، ولئن قامت ليكون فيها خيراً مما كان في الأولى . . .

« فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا . وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً » .

وهؤلاء ثلثة تدرّكهم ضراوة الجمع . وكلب الاكتناز وما يتطلبه ذلك

من بخل وشح . وضمن بالإففاق حتى على الفقير ، ورفض للإحسان حتى بالنقيير
يهرعون — متخافتين — ليجمعوا ثمار مزارعهم الواسعة ، حذرين أن
يدخلنها عليهم مسكينين ، متخافتين خشية أن يسمعهـم غريب أو عابر سبيل ،
ويمدھـم الحرص والطمع بقوة فيغدون على حرد قادرين . ولا يقبلون استثناء
كأن قد ملكوا كل شيء ! .

« إنا بلوناھـم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين
ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم ،
فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم
يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكينين وغدو على حرد قادرين » .

وهذا قارون يعتز بكنوزه وأمواله ، ويخرج على الناس مزهوا بزنيته
وموكبه . فإذا نصح له الناس بالقصد غضب ، وصعر خده وزعم — ككل
رأسمالى — إنما أوتيـه على علم ، وإنه حر يفعل ما يشاء ، وهكذا المال يجعل
النصح ثقيلـا عقيـا ويدفع صاحبه إلى العناد والكبرياء .

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز
ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة من أولى القوة . إذ قال له قومه لا تفرح إن الله
لا يحب الفرحين ، واتبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من
الدنيا . وأحسن كما أحسن الله إليك . ولا تبغ الفساد فى الأرض . إن الله
لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندى » .

وهذا صحابى فقير يفسده المال تتطلع إليه نفسه وتستشرفه . ويزين له
الشیطان أنه إنما يطلبه لنصرة الله ورسوله . فيطلب إلى الرسول أن يدعو الله
له أن يغنيه ، ويدعو الرسول له بما أراد . ويستجيب الله سؤال الرسول ،

وتضيّق المدينة ذات يوم بغنم « ثعلبة » فينتقل إلى واد من وديانها وتشغله أمواله شيئاً فشيئاً فيتخلف عن بعض الصلوات ، ثم يتخلف عن الصلوات العامة كلها فلا يشهد إلا الجمعة ، ثم لا يشهدا ، والمال يتراد ويتكاثر وتزيد منزلته والوقت المخصص له قدر زيادته ، حتى إذا أتاه رسول النبي صلى الله عليه وسلم يطلب منه الزكاة لم يجد ثعلبة القديم ، ولم ير سماحة الصحابي أو يسمع أمثال المؤمن . وإنما شاهد الضيق الذي ينتاب كل ثرى عند المطالبة ! وسمع صيحة الغضب للمال . . . « إن هذه إلا جزية . . . ما هذه إلا أخت الجزية . . . » وأرجأ الرسول ، وضمن على المسلمين ببعض ماله .

وكان فيه بقية من خير ، وأثارة من بركة صحبة الرسول فادكر بعد امه ، ولكن الله عز وجل أراد أن يجعل منه مثلاً مروعاً خالداً لإفساد المال ، وعاقبه العكوف عليه والاشتغال به — فرفض النبي قبول صدقاته ثم جاء بها إلى أبي بكر بعد أن رفع النبي إلى الرفيق الأعلى فرفضها ، وإلى عمر بعد أبي بكر ، وإلى عثمان بعد عمر ، وهم يرفضون جميعاً ما رفضه رسول الله .

فيا ويح ثعلبة ! لقد هلك . وباء بما له ملوماً محسوراً ، لا يرى لأى شيء فضلاً بعد أن خسر نفسه .

وهكذا يصور لنا القرآن هذه القصة ، قصة الرأسالى ، من نشأته في تواضع إلى طغيانه بالمال ، قصة مصرع الرجل وانتصار المادة « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه . وبما كانوا يكذبون » .

هذه الآيات كلها تصور لنا قوة وازع الربح الجارفة في الانسان ومدى مسخها له ، وهيمتها عليه ، وكيف انها إذا تملكته أخضعت تصرفاته ، كلها لها ، فإذا كان ضيق الأفق بالفطرة ، ممسكا بالطبيعة ، منطوياً على نفسه ، جعل الكنز له دأباً ، والادخار غاية ، فيراكم الذهب على الفضة ، ويجعل متعته الوحيدة استعراضها ومشاهدة بريقها ولآلائها ، فيجبر بذلك على أداة جعلت للتداول ويعطل سيرها ، ويوقف استثمار الثروات ، وارتفاع الشعب بها ، وكـم من أموال كنزت في « الصفايح » وتحت الثرى كانت تسعد آلافاً من الناس لو وصلت إليهم واستطاعوا استثمارها ، ومن أجل ذلك ندد القرآن بهؤلاء البخلاء المسكين ، الجشعين الكاذبين ، وبشرهم بالعذاب الأليم « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فنفقوا ما كنتم تكنزون » .

وإذا كان الثرى رخواً ليناً إنصرف إلى الاسراف وجعل تحقيق أكبر درجة من الملاذ غاية التي يتفنن في طرق تحقيقها والوصول إليها ، فيبنى القصور المشيدة ، ويركب المراكب الفارهة ، ويكسو نفسه الخز والديباج وينصرف إلى النساء ، يتخذ منهن جيشاً جراراً لحدمته وامتناعه ، وينقلب إلى الخمر يضرهم بها شهواته ، ويلهب بها غرائزه ، ويتطلب فنون الانحلال من رقص خليع ، وموسيقى مخنثة ليتغلب بها على عاقبة الاسراف من ملل وسأم ، كما يتطلب « المسهلات » ليستعين بها على هضم المآكل الدسمة ، حتى يصير قصر الكبير بؤرة من بؤر الفساد . ومستنقع من مستنقعات الانحلال تفوح منها الروائح النتنة وتنقل منها الميكروبات المعدية الفتاكة

على أجنحة الإشاعات وأطراف الأخبار التي يذيعها على الناس خدمه وحشمه ،
فيشيع الانحلال في الأمة ، لأن الطبقات الدنيا تحذو حذو الطبقات العليا ،
ولأن الناس على دين ملوكهم !

ولأن الثرى طالب منهوم لا يقنع بأمواله الكثيرة الطائلة فإنه يطمح
إلى الدولة حيث تضاف إلى الثروات المادية ثروة جديدة هي الناس . وحيث
تتضاعف الثروات بفضل القوانين . وهو يصل إلى ذلك اما بشراء المنصب
واما بشراء الوزراء والكبراء والنواب . ويتم له هذا أو ذاك ، ويحدد نفسه
في عشية وضحاها حاكما بأمره . عن يمينه ثروات لا تكاد تنفذ . وعن شماله
مطالب للترف ورغبة في الاكتناز لا تكاد تنتهى . وهو يعمل كالساقية
يفرغ من هذه ليضع في تلك ، لا هذه تنفذ ، ولا تلك تشبع ، ذلك لأنه
ما دام هناك أناس فهناك سبل مختلفة للابتزاز ، ولئن لم يبق معهم إلا دراهم
معدودة وملايم بخسة . فإن الدراهم والملايم تكون ثروات إذا جمعت من
الملايين . وقد يصل الناس إلى الحد الذي تخيله « لاسال » في القانون الحديدي
فلا يجدون إلا أقل حد يصلح لبقاء الرmq . ولكن حتى هذا ، لا يزال
الناس أحياء فما يزال هناك مجال للاستغلال وتدور عجلة الابتزاز على الناس
أنفسهم وعلى حياتهم وعلى رأس المال الآدمي بعد أن أتت على الثروات فيعيش
أناس بقتل أناس كما تعيش الخفافيش على دماء ضحاياها . وذلك ما تحقق في
هذه البلاد . وكاد أن يكون هو الوضع الدائم . فبعد الفراعنة الذين استنزفوا
أموال الشعب وحيويته في بناء قبورهم ومعابدهم جاء البطالمة الإغريقيون
وأراقوا على موائد لذاتهم وشهواتهم الثروات الطائلة ، ثم جاء الرومان فجعلوا
من البلاد مزرعة للغلال ، وجاء العرب ، وتعجب أبو الطيب المتنبي مما يحدث
في مصر ، عبيد يدخلون البلاد عن طريق الشراء فيستعبدون الشعب !

وعناقيد شبيهة أهملتها النواطير فتهاوت عليها الثعالب نهباً وأكلاً ، وما تفتى
العناقيد .

صار الحصى امام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن ، وما تفتى العناقيد
وجاء الماليك ومحمد على وخلفائه واستخلص الكرياج والسخرة
والضرائب كل ملهم لدى الفلاحين حتى استطاعوا أن يحققوا لأنفسهم
البذخ والترف الذى رواه التاريخ عنهم ونلمسه فى آثارهم . وكانت هذه
الفترة من أتعس فترات البلاد ، انخفض أهلها ، ووصلت المسغبة والبؤس
بالناس إلى غايتها ، وبلغ الفلاحون أقصى درك يمكن أن يصوره القانون
الحديدى ، ومع ذلك فإن مجرد وجود مليونين من النفوس المفلسة ،
المریضة ، المستسلمة ، كان دائماً ، وبشكل ما ، ثروة كبرى أتاحت الرفاهية
المنشودة للماليك وخلفائهم .

وليس عبثاً أن يربط القرآن دائماً بين الترف . وبين الفسوق . الفسوق
بمعناه اللغوى الواسع . ومعناه الشعبى الضيق . وأن يربط بين هذين . وبين
الانحلال . وأن يربط بين هذه جميعاً . . وبين القلة من القادة . فيشير إلى
المترفين لا إلى الترف . وهذه نقطة بارعة فكلنا ، نعرف أن الترف مفسدة
الحضارة . . ولكن أى ترف ؟ إن الطبقات الشعبية فى العالم أجمع لم تذق
طعم الترف منذ بدأ الخليقة حتى الآن . وكتب التاريخ مملوءة بصور البؤس
والشقاء . . وثورات الشعوب لوطأة الخراج وثقل الضرائب . فالترف
ترف الخاصة والقلة . واختصاص القلة بالترف بما يحمل ذلك فى ثناياه من معانى
تضخم الترف بقدر شقاء الشعب . وعدم المساواة — بل التقارب —
بين الطبقة الثرية الممتلئة . وسواد الطبقات الأخرى . يوضح جناية القلة

على الكثرة .. وجريرة القادة والأمراء إلى الشعوب . وإن مادة الانحلال ..
وإن لم تقرب إلى الشعب .. إلا أن إصابة تلك القلة بها كانت كافية لأن يعم
الانحلال الأمة وأن تجازى بذنب قادتها .

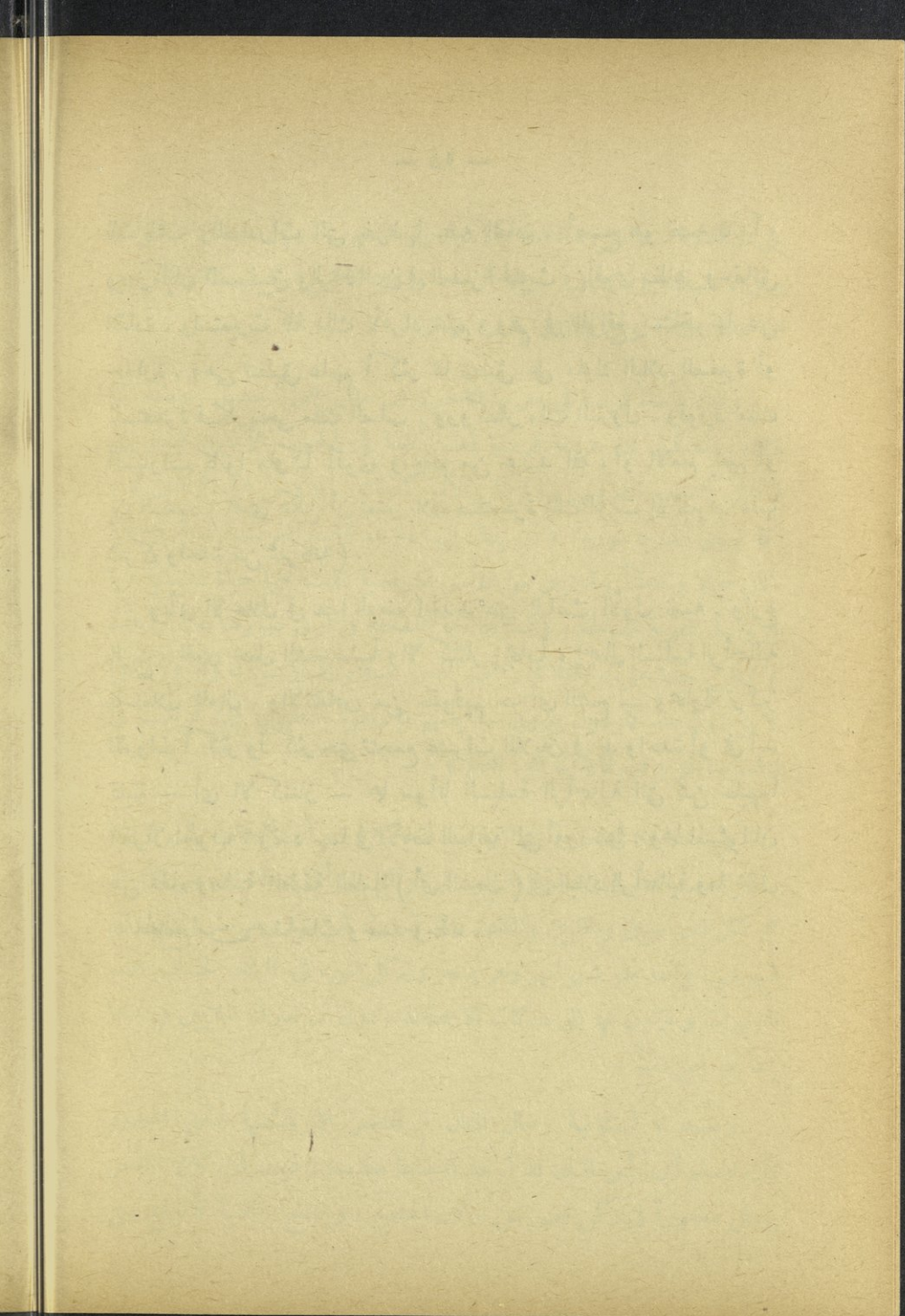
ولعل مأساة فرنسا في حربها الأخيرة هي مثل عملي حديث يوضح لنا
ذلك . فقد قيل إن هزيمة فرنسا أمام ألمانيا في الحرب الأخيرة تعود إلى
انحلال الشعب الفرنسى . ولم يكن الأمر كذلك . « ومن الخطأ البين » ،
كما يروى أندريه موروا « أن يقال إن أسلوب الحياة الفرنسية سنة ١٩٣٩
كان ضالاً وخاطئاً ، فلإثنين من الأسر الفرنسية كانت تحيا حياة تشملها فيها
الروابط القوية الصالحة ، وتغمرها فيها البساطة في أرق صورها غير أن هذه
لم تكن حال هؤلاء الثلاثة آلاف الذين يسكنون باريس ، والذين كانوا
« يؤمنون — كما يقول يرون — بأنهم ما داموا يذهبون إلى فراشهم في
وقت متأخر ، فهم لاشك قادة العالم » .

على أننا لسنا في حاجة إلى الرجوع لسنة ٣٩ .. أو الذهاب إلى فرنسا
خالة الشعب المصرى التبعة إنما تعود في الواقع إلى أن بضعة مئات من الأفراد
هم كبار السياسيين والمالين والقادة ، قد فسدت نفوسهم وخربت ذممهم وقام
فيهم شيء واحد هو شهواتهم وهم يسخرون كل شيء في البلاد لحساب هذه
الشهوات وينزلون بها إلى دركات الانحطاط ، دون أن تقترب الملايين وراءها
إنما أو تبجن ذنباً .

وبعد ، فمسئولية رجال المال لم تقتصر على شكلها المحلى المحدود
لأن تضخم أثر رأس المال قد أوجد أوضاعاً جديدة . فبعد أن كان التاجر
يعيش مغموراً في ركن قصى من أركان المجتمع ، ويخضع راضياً لأنواع من

المضايقات والمصادرات التي يفرضها عليه القادة . أصبح هو نفسه قائداً ، وبرز كيان المصرفيين والرأسماليين في العصر الحديث ، بأقوى مظاهر وحقائق القادة ، واستعيرت كلمة ملك لأفراد منهم ، وهم في الواقع يستحقونها عن جدارة . وهي تنطبق عليهم أكثر مما تنطبق على ملوك البلاد الصغيرة أو المستعمرة فكلارينجي ملك الصلب . وروكفلر ملك البترول . وفورد ملك السيارات كانوا ملوكاً أقوى وأعظم من عبد الله ، أو الامام يحيى أو بن السعود (الذى يمكن أن تعتبر بلاده مستعمرة لملك الزيت إذ تشرف عليها شركة واحدة من شركاته) .

ويأتى الانحلال في هذا الوضع الجديد عن الباعث الأول نفسه . وازع الربح . الذى يجعل الشح سلبياً والاكتناز إيجابياً ، إجمال السياسة الرأسمالية فاستغلال العمال . والانتقاص من حقوقهم — أى الشح — ومحاولة تركيز الثروات أكثر وأكثر حتى تتجمع عشرات الملايين في يد واحدة أو في أيدي قليلة — أى الاكتناز — هما سؤاها السياسة الرأسمالية التي شغل عليهما القرآن الحرب ، وندد بهما في الآيات السابقة التي أوردناها . وهما المسئولان عن شقاء وتعااسة الطبقة العاملة (أى الشعب) في البلاد الرأسمالية وما يخل به المجتمع من مضايقات وحسد وحقد .



الباب الثاني

مسئولية الشعوب عن الإخلال

« يهتف مصلح جرىء بالفلاح المسكين الذي قضى سحابة عمره يحرق قطعة صغيرة من الأرض ارتوت بالعرق أكثر مما ارتوت بالماء ، أيها الفلاح ، الذي تشق الأرض بمجرائك ، لماذا لا تشق به قلب مستعبدك ؟ فإذا يجد ؟ يجد ابتسامة بلهاء ، لا فهم ولا صدق . ولا استجابة . ويحس كأنه يتكلم بلغة أجنبية . وإذا أوعز الملاك إلى هؤلاء الفلاحين أنفسهم بقتله قتلوه ، ولن يطلبوا لذلك إلا ثمن العيار ! » .

الشعوب المتفاربة على أمرها

لا بد أن نعترف أن تصوير مسئولية الشعوب مسألة أدق من تصوير مسئولية القادة . فهناك لم يكن من العسير أن يلمس الباحث أفراد المسئولين ، ويتحرى أعمالهم وآثارهم عملاً عملاً ، أما هنا وسط الآلاف والملايين ، كيف يستطيع الإنسان أن يحدد المسئولية ، وعلى من يلقيها .

للهولة الأولى ، يبدو أن ذلك غير ممكن ، لأن مسئولية الشعوب تخضع كما وضحنا ذلك في باب مسئولية القادة لحقيقة أساسية هي أن كثرة العدد وتباعد الأمكنة ، وتعدد المشاغل ، جعلت المسئولية الجمعية الكاملة شبه مستحيلة . فقد يكون ممكناً أن يحكم بضعة مئات أنفسهم بأنفسهم بأن يجتمع الجميع لدراسة شئونهم واتخاذ القرارات اللازمة . ومن الممكن بصعوبة أكثر أن يحكم بضعة ألوف أنفسهم على هذا الوضع . وبهذه الطريقة كانت تحكم المدن اليونانية (إذا استبعدنا عنصر الرقيق المجرد من الحقوق) وبعض العشائر والقبائل . ولكن الأمر يغدو مستحيلاً إذا زاد العدد ، واتسعت الرقعة ، وتباعدت الأطراف . وحتى لو أمكن حشد هذا العدد الكبير في مكان واحد لما أمكن أن يشتركوا اشتراكاً حقيقياً أو يساهم كل منهم مساهمة فعالة ، ولو أمكن حشدهم مرة فمن الصعب أن يتكرر ذلك ، ومن هنا كان فساد العبارات الاصطلاحية الرمزية في المذاهب السياسية مثل « حكومة الشعب » في الديمقراطية « وديكتاتورية البلوريتاريا » في الماركسية وانها تقبل إلا على اعتبار المجاز والإنابة . وهنا تنقلب المسئولية من مسئولية شعوب إلى مسئولية قادة .

ومما يجعل الشعوب مغلوقة على أمرها ، مجردة من السلاح أمام القادة أن الرجل الشعبي يفقد شعبيته بمجرد خروجه من الغار وارتفاعه عن مستوى الشعب ! فالرئى ، ليس فحسب ينسب القرية عند ما يعيش فى المدينة ، بل انه كثيراً ما يجعل السخرية على القرية وأهلها هوايته ودأبه ، ومن يشتري عربة سرعان ما ينسى آلام الانتظار على محطات الترام والإمبوس والمشى الطويل ، ولا يعطى اهتماماً لمسألة المواصلات وإصلاحها ، كما كان يمنحها أولاً . ومن يجد نفسه فى ميسرة ، ولو نسبية ، يفكر بمنطق الحالة الجديدة . اتعظ فى فى ذلك بما نسمعه من ثورة موظفى الدرجة الثامنة أو السابعة على منح مجانية التعليم لموظفى أو عمال أقل منهم بدرجة واحدة أو اثنتين ! وفى إحدى الروايات الهزلية يمثل « غى حرب » وهو يرسل فرقة كاملة من أتباعه ليهدموا ، هدماً ، بيت الفقر القديم ، وليجوا الذكريات المؤلمة التى كانت تثيرها ، وتمسح الماضى الكئيب وتذهب به طعمة للنيران وهذا هو ، فى الواقع ، مسلك الكثير من القادة والزعماء الذين يظهرون من أعماق الشعب ، فإنهم يريدون الفرار نهائياً من منبتهم الوضع ، والاتحاق بركب السادة الجدد ، والتشبه بهم فى الأكل والشرب ، وأكثر من ذلك ، المصاهرة ، كأن لحمة الزواج ستمسح عنهم عار الشعبية .

وهكذا يبدو الوضع متافراً ، فالشعوب فى حقيقتها هى الملايين الكادحة فى الحقول والصانع ، وهذه الملايين لا تستطيع التجمع ، ولا يمكنها العمل لو تجمعت (أى بصفها الجمعية) فإذا خرج من صميمها أفراد ليمثلوها ، وينطقوا بصوتها ، انقلبوا بمجرد خروجهم من شبح المحيط الشعبى إلى دائرة القادة . فلكى يكون القادة شعبيين حقاً يجب أن يظلوا فى الغار الشعبى ولكنهم إذا ظلوا فى الغار الشعبى فلن يكونوا قادة ، وإذا كانوا قادة فقدوا

إحساسهم الطبيعي بالشعب ، وانبتت العلاقات القائمة على الزمالة والمساواة بينهم وبين الجموع ، وبدأوا في ملاحظة اعتبارات الوضع القائم . وهذا الأمر مشاهد في حالة العمال الاشتراكيين الانجليز ، قبل الحكم وبعده ، وبصفة عامة في كافة النقابات العمالية ، فعوضو مجلس إدارة النقابة لا بد أن يكون عاملاً مشغلاً ، وهو إذا كان كذلك ، فلن يستطيع التفرغ للنقابة ، وإذا تفرغ لها لم يعد عاملاً ، وقد تجاوبه مع العمال ، وأصبح ينظر إليه نظرة خاصة .

إن هذه الضرورة القاسية التي تجعل الشعوب لا تستطيع حيلة ، ولا تهتدى سبيلاً أمام القادة ، وترغمها على أن تضع أزمة الشؤون في غير أيديها ، لم تخف على كثير من الكتاب والباحثين . ولعل خير من عبر عنها وتمثلها هو شوقي الذي ندب حظ « السواد الغافل » و « الجماعات » و « الدهماء » الخ . . . هذه الألفاظ التي يدل مدلولها اللغوي وحده على المقصود من مثل الأبيات الآتية :

يقضون ذلك عن سواد غافل خلق السواد مضلاً ومسوداً
جعلوا مشيئة الغيبة سماً في الحادثات لمن أراد صعوداً
أو :

سخر الناس وإن لم يشعروا لغنى أو قوى أو ميين
والجماعات ثناً المرتقى في المعالي وجسور العابرين
أو :

فطاموا تلاعبوا بالهمج المصيرة
وعبروا غفلتها إلى الظهور قنطرة

تكميف مسؤولية الشعوب وأساسها

إذا كان الأمر كذلك ، ففيم يلقي بنصيب من المسؤولية على الشعوب أو يحاسبون عليها ؟ الواقع ان الحقائق السابقة إنما هي تصوير لوجه واحد من وجهي المسألة — ولكل مسألة وجهين على الأقل — أما الوجه الآخر فإنه يخفف من سواد هذه الصورة ويهون من مرارة وقعها ، ويثبت أن الشعوب جانية ، قدر ما هي مجنى عليها ، مسئولة قدر مسؤولية القادة ، وان لديها وسائل تستطيع بها أن تحقق أغراضها ، وروابط تستطيع أن تجمع بها كلمتها ، وتعلم إرادتها دون أن تتصرف بها أهواء القادة والرؤساء .

ولقد وضعنا في الفصل السابق تلك الاستحالة المادية التي تحول بين الشعب ، وبين حكمه لنفسه بنفسه ، واضطراره إلى الاستعانة بالقادة ، ولكن ذلك يجب أن لا يفهم منه ان الوجود الشعبي قد تلاشى ، وان القادة قد أصبحوا أحراراً يملون إرادتهم دون أى تقدير لرضا الجماعة ، الأمر ليس كذلك بالطبع ، فالقائد سيان كان عسكرياً أو صحفياً أو سياسياً ، مرغماً على ملاحظة رغبات الجماعة ، والتجاوب معها ، وهو يعلم بفطرته وتجاربه ، أنه لا يستطيع أن يقود الجماعة ما لم يتملق أهواءها أولاً أو يتظاهر بالخضوع لها والعمل على خدمتها ، واستمرار ذلك — حتى وإن كان على أسس من التكلف والنفاق — يحول بين القائد وبين الانطلاق ، ويكبح الزمام ، ويوجد جواً من التميع في إصدار الأوامر . والقائد يقف من الشعب موقف المروض من الوحش ، يعلم أنه إذا أراد أن يتبع الوحش تعليماته ، فعليه أن يحرص ذهنه

كله فيه فإذا شرد لم يأمن الاتقضا أو كرا كب الأسد — كما قال ابن المقفع — يخافه الناس ، وهو على نفسه أشد منهم خوفا .

ولقد أثبت جوستاف لوبون في كتابه سر تطور الأمم شيئاً في غاية الأهمية والخطورة . ذلك أن الأمم لا تتطور تبعاً لإرادة القادة ولا انسياقاً لرغباتهم . وإنما تتطور ببطء شديد داخل الإطار الذى ترسمه روحها ومزاجها ، وإن من يريد — من القادة — مخالفة هذه الروح إلى غيرها ، أرقى أو أحط فانه يكون كمن يحاول إقناع السمك بإمكان البقاء فى الهواء » بحجة أن التنفس الهوائى ناموس جميع الحيوانات الراقية ! « (١) .

ويقول جوستاف لوبون فى ذلك (٢) « ان لكل أمة مزاجاً عقلياً ثابتاً كسبات خواصها التشريحية . وهذا المزاج هو الذى تصدر عنه مشاعرها ، وأفكارها ونظاماتها ومعتقداتها وفنونها ، وقد ظن تو كفىل وغيره من كبار المؤلفين أن نظمات الأمم أصل فى تطورها ، ولكنى على الضد من ذلك ، أرجو أن أقيم البرهان من أحوال الأمم التى بحث فيها تو كفىل على أن تأثير النظمات فى المدنية ضعيف جداً وانها فى الغالب مسببات لا أسباب » .

ولئن كانت الأمة — فى هذه النظرية مقيدة — إلى حد كبير — بمزاجها إلا أن هذا التقيد ينسحب أيضاً على القادة . ويكون أثره عليهم أعظم ، لأنهم بالطبع أشد إسرافاً ، وأبعد عن روح الشعب منه نفسه ، فإذا كانت هذه النظرية لا تعطى الشعب قوة الإبداع السريع والمباشر إلا أنها تجعل من روح الشعب قواماً على أهواء الساسة ، والقادة وسرفهم ، وتجعل شأن العطاء محصوراً فى تمثيل الأمة ، فاكتشافات المكتشفين إنما هى ثمرة

(١) سر تطور الأمم لجوستاف لوبون ص ١١٣

(٢) المصدر نفسه ص ٧

اكتشافات كثيرة سابقة ، وليس عطاء السياسة بأقل ارتباطا بالماضى من المكشفين والمخترعين » إذ ليس لآثرهم بقاء إلا إذا عرفوا كيف يستخدمون مقدرتهم حيث تكون حاجات عصرهم كما فعل « قيصر » و « ريشيلو » ، وحينئذ فالسبب الحقيقي في نجاحهم موجود قبلهم بزمن طويل ، ولو ظهر الرجال قبل عصرهما بقرنين أو ثلاثة قرون لما أتيح للأول أن يخضع الجمهورية الرومانية العظيمة إلى إرادة سيد قاهر ، ولا تمكن الثانى من إيجاد الوحدة الفرنسية وعليه فكبراء السياسة الحقيقيون هم الذين يمثلون حاجات الأمم التى اقتربت والحوادث التى أتم الزمان معداتها ويرشدون إلى الطريق الذى يجب السير فيه « (١) .

وقد وضع هذا المعنى فى العصر الحديث ، وأصبح صوت الجماعة هو الأمر ، فلئن وجدت الجماعة من يندب حظها السيئ ، وقضاء الضرورات القاسية عليها ، فإنها لم تعد من يشيد بها ، ويقول « كان المؤثر فى الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة التقليدية للدول ومنازعات ملوكها . ولم يكن لرأى المجموع وزن يذكر ، لم يكن له قيمة أصلا فى الغالب . أما الآن فالسياسة التقليدية هى التى أصبحت لا وزن لها . ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك ، بل صارت الغلبة لصوت الجماعات ، فهو الذى يرسم للملوك خططهم . وهو الذى يجتهد الملوك فى الاصغاء إليه ، وأمسى مصير الأمم راجعا إلى ما تحمله روح تلك الجماعات لا إلى ما يراه أصحاب مشورة الأمراء « (٢) .

فبعد أن احتفظت الشعوب لنفسها بامكانية التطور العميق ببطء ، ومع

(١) المصدر نفسه ص ١٦٦ .

(٢) روح الجماعات ص ١٦٦ لجوستاف لوبون ص ١٠

مسايرة روحها ، وأسلمت للقادة قيادة التطور السطحي ، والسياسى مادام متفقاً مع روحها ، عادت ، فانتزعت قيادة التطور السطحي والسياسى ، وأشركت فيه الجماهير والجماعات .

فإذا كان هذا كله يمنح الشعوب قضاء وسلطة ويجعلها مسئولة عن الانحلال ، فيجب أن نوضح الأساس الجمعى لهذه المسئولية ، فإذا قلنا ان الشعب المصرى مسئول عن كذا . . . فماذا نعنى بذلك ، وبأن صفة نشرك فى المسئولية أشخاص الأفراد ، ونجمع بينهم على اختلافهم ؟ . وكيف يصح لنا أن ننظر إليه ككل واحد ، مستحق للثواب أو العقاب ، متحمل للمسئولية ، ان الاجابة على هذا يدلى بها علماء الاجتماع ، فهم يوضحون لنا ان كلمة « شعب » تدل على ما هو أكثر من مجموعة من الأفراد . أو الآحاد وهم يرون ان اجتماع الأفراد بعضهم ببعض يولد حالة جديدة تتسم بخصائص مختلفة تمام الاختلاف عن خصائص كل فرد على حدة . وفى ذلك يقول بعضهم « عندما تعمل جماعة من الناس سوياً يندر أن يظلوا مجرد عدد من « الأنوات » — جمع أنا — المستقلة . ولن يحدث هذا إلا تحت ظروف خاصة جداً والنذى يحدث بدلا من ذلك أن يصبح المشروع العام محط عنايتهم جميعاً ، وبالتالي يعمل كل منهم باعتباره جزءاً من كل » (١) .

وهم يستدلون على ذلك بالظاهرة المعروفة جيداً فى علم النفس والاجتماع — ظاهرة العقل الجمعى — أو عقلية الجموع . أى تلك الحالة النفسية التى تنتظم الأفراد عند اجتماعهم ، وتعطيهم طريقة للتفكير والعمل مختلفة عن الطريقة التى يفكر بها كل واحد منهم ، فترى الهادى المتزن وقد استخفه

(١) الأسس النفسية للإبداع الفنى للأستاذ مصطفى سويرف ص ١١٣ .

الحماس، فتهور . وتجد الجبان وقد استثارته الشجاعة ، فتقدم . وترى الجميع ، وكأن سحراً ألم بهم ففقدوا شخصياتهم الفردية المتعددة وانتظمتم شخصية واحدة حتى لكأنهم أصبحوا شخصاً واحداً .

وهم يستدلون على أنه ليس مما يخالف الوقائع الملموسة أن يكون الشعب — وهو من وجهة النظر السطحية ، مجموعة عدة أفراد — شيئاً أعظم من ذلك ، بظاهرة التغير الكيميائي ، أى أن مزج العناصر بعضها ببعض يولد عناصر جديدة تتوفر فيها صفات لا تتوفر ولم توجد في العناصر القديمة المكونة لها . فملح الطعام مثلاً مكون من عنصرى الصوديوم وهو معدن خفيف لين يطفو فوق سطح الماء . وإذا مسته النار تصاعد منه لب كثيف أصفر . وإذا ابتلع إنسان قطعة من الصوديوم لجاز أن تستحيل إلى كتلة من المعدن الذائب الملتهب ! والكحول وهو غاز خائق سام ، إذا استنشقه إنسان نَف الدم من رئتيه نَفاً يؤدي به إلى الهلاك ! ومزيج هذين هو ملح الطعام ! الذى إذا عدم لحق الفساد بكل صف من أصناف الحيوان ابتداءً من الأممية إلى الإنسان . والماء ، وهو سائل ، مزيج من غازى الأوكسجين والهيدروجين . والبرونز ، وهو معدن صلب ، إنما يتكون من مجموعة من المعادن المرنة .

وقد أشار إلى هذه الظاهرة ^(١) جوستاف لوبون . فقال « أهم ما يمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التى يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده وذلك كيفما كان أولئك الأفراد . وكيفما تباينوا أو اتفقوا

(١) ص ١٨ روح الجماعات .

في أحوال معيشتهم . وفي أعمالهم اليومية وأخلاقهم ومداركهم . وعلة ذلك انضمامهم إلى بعضهم وصيورتهم جملة واحدة ، والجماعة ذات عارضة متألّفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض تكتليات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتاً أخرى — لها صفات كل خلية فيها ، ولا يوجد بين العناصر التى تتكون منها الجماعة حد وسط . وإنما الذى يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة كما يحدث ذلك فى الجواهر الكيماوية ، ألا ترى انك إذا جمعت جوهرين مثل القواعد والأمحاض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين .

ولا شك ان أعظم الحوادث التاريخية ، والأعمال الكبيرة من ثورات أو حروب ، أو تنظيم ، إنما تمت بموافقة الجموع فى تلك الحالة التى تجعلها شخصاً واحداً . وتجعل مسئولية كل فرد تعادل مسئولية الآخر .

على أن هناك عناصر أخرى توجب المسئولية الجمعية . فالشعوب . إذا تجمع أفرادها ، فى المدن ، والقرى ، للبت فى مختلف الشؤون السياسية والاجتماعية ، اعتبروا كفرد واحد ، وأصبحت المسئولية الجمعية واضحة . فإذا لم يحدث التجمع ، فهناك بين الأفراد ، ما يعادل التجمع ، هناك الروابط القوية التى تربط أفراد الشعب وتنظمهم ، وتوحد بينهم .

ومن المشاهد ان أوضاعاً جديدة تتولد بمجرد تجمع الناس كاحدى الضرورات التى تطلبها طبيعة الاجتماع نفسه . فتظهر التجارة والصناعة وأساليب الإنتاج ، وتوزيع وتقسيم العمل ، ويسن القانون ، وتؤسس المدارس ، ويكون الجيش الخ . . . وهذا الضرب من النشاط الذى يقوم نتيجة لنشاط الشعب وارتباط أفرادهم ببعض ، والذى يكيفه الشعب ، ثم يعود

فيؤثر على الشعب ، يجعل الشعب مسئولاً عنه كوحدة ، أو على الأقل يربط بينه بما يجعل مسئولية كل واحد مشابهة لمسئولية الآخر .

ومن أقوى الشواهد في التدليل على وحدة الشعب ومسئوليته الجمعية ، رابطة العقيدة . فالعقيدة أياً كانت توحد بين الأفراد وتحدد لهم الغايات والوسائل ، فإذا كانت هذه العقيدة هي الدين ، فإنها تلزمهم آداباً خاصة وتمنحهم فلسفة شاملة . فكل الذين يدينون بالإسلام يتبعون آداباً واحدة ، ويولون شطر قبلة واحدة ، وينهجون في أكلهم وشربهم ، وقيامهم وقعودهم وصلاتهم وصيامهم نهجاً واحداً .

وليس هناك ما هو أقوى من العقيدة في الوجود الاجتماعي وفي ذلك يقول الفيلسوف الانجليزي المعاصر برتراند رسل « من السهل أن يتضح لنا أن العقيدة ذات سلطان على جميع أنواع القوى الأخرى التي تتفاعل . فلا قوة لجيش بغير جند تؤمن بالهدف الذي من أجله تحارب ، وحتى الجند المرتزقة لا تقدم على الحرب إلا وهي تؤمن بمقدرة قائدها الذي سيقودها إلى النصر . ولا يكون القائمون ذو سطوة ونفوذ إلا إذا ساد الرأي باحترامهم . والنظم الاقتصادية تعتمد تماماً على احترام القوانين فتصور مثلاً ماذا يحدث لنظام البنوك في بلد لا يجد فيه المواطن العادي حرجاً في أن يزور الشيكات . ولقد أظهرت العقيدة الدينية في كثير من الأحيان إنها فوق الدولة كما أنه إذا كانت الأغلبية في بلد تظاهر الاشتراكية استحالة على الرأسمالية أن تواصل عملها ، وعلى العموم يمكننا أن نقول ان الرأي والعقيدة هو المرجع النهائي لكياننا الاجتماعي » .

ولننظر إلى قوة عقيدة « كالشرف » مثلاً إذا تملكك النفوس . إنها تستطيع أن تدفع بالناس إلى أخوف المخاطر وتثنيهم عن أحبها إذا اقتضى

قانونها ذلك ، تدفع بالرجال دفعاً إلى مخاطرة الحرب حيث الموت الأكيد فيسرون إليه هافين : « لو أن الحياة هي كل شيء » وتثنى النساء عن الوقوع في مخاطرة الحب ولقاء الأعبة فيئدن جهن الوليد هامسات ، ونفوسهن تتقطع حشرات « لو أن الحب هو كل شيء » فالرجال يعلمون أن الحياة ليست هي كل شيء ، والنساء يعلمن أن الحب ليس هو كل شيء ، لأنهم معاً يضعون الشرف فوق الحياة ، وفوق الحب . وانه — إذا كان في شكل العقيدة — لأقوى منهما .

فإذا كان للعقيدة هذه القوة ، وإذا كانت تتسلل إلى النفوس فتوحدھا وتلزمها آداباً واحدة ، وتتغلب فيها على نوازع الطبيعة نفسها . فلا شك أن مسؤولية ضلال العقيدة ، وما يترتب على هذا الضلال من أخطاء . يقع على جميع المؤمنين بها ، ويتساوى كل المؤمنين في التبعة . فالشعب الذى يؤمن ، أو حتى على الأقل تؤمن أغلبيته ، بإله مزيف . يستحق أفرادہ ، العواقب التى تترتب على هذا الإيمان ، لأنه يساهم في بناء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تتطلبها هذه العقيدة المزيفة الخاطئة .

ومن هذه الروابط « الطابع القوى » . ذلك الطابع الذى يبرز بقدر عراقة الشعوب وتوالى القرون والأزمنة عليها . ويمثل ثباتها ، ويتجلى في كل شيء ، فنونها . آدابها . عاداتها الاجتماعية . تقاليدھا . لهجاتها . فهمها للحياة ، ونظرتها إلى الأشياء ، بل إنه ليكاد يجرى يده على السنع والبنى فتتقارب سنح أفراد الشعب الواحد . حتى ليكاد الفرد الواحد يمثل الجنس كله . ويستدل به عليه ، إذا وضع بين الأجناس الأخرى ، وليس في هذا غرابة ، على كل حال ، إذا ذكرنا أن الشعوب (١) . وإن تكاثر عددها ،

(١) قدر أحد الباحثين أن الفرد الفرنسى يحمل في جسمه دم عشرين مليوناً =

إلا إنها قد تعود ، إلى عدد ضئيل من الأفراد ، أو حتى أسر متعددة .
والواقع أن كلمة الشعب ، إنما تطلق فحسب على هذه الجماعات التي
استكملت الطابع القوي ، والمقومات الشعبية ، ودعمتها الأزمان والقرون .
ومع أن الأفراد أحرار — كما يقال — في تصرفاتهم . فما من شخص
واحد يستطيع أن يرتدى لباساً خلاف اللباس السائد في المجتمع . وإذا فعل
اعتبر الناس ذلك استهانة بهم وتحقيراً لهم . واعتداء عليهم . وإن لم يكن قد
وجه اليهم شيئاً على الإطلاق . ذلك أن المجتمع وإن تفرق في آحاد إلا أنه
مربوط برباط العادات كجسم واحد .

الروح الجمعية للشعب . وطابعه القوي ، وشق الروابط من تاريخ
وتقاليد وعرف وعقائد دينية وسياسية ، هي الأسس التي تعطي ملايين
الأفراد شخصية معنوية واحدة وتحملها مسئولية باعتبارها شعباً .

هذا كله فضلاً عن الحقيقة المادية الواقعة . وهي أن المجتمع الإنساني
وحدة تتأثر بعضها ببعض . أو هو كما شبه الحديث الكريم ، كالجسد إذا
اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . وكل كلام عن الفرد
ككل مستقل كلام لا معنى له من الوجهة العملية . وقد يكون صحيحاً من
الناحية النظرية ، ولكنه لا ينطبق إلا على إنسان ما قبل التاريخ والمجتمعات ،
والفرد المنعزل في جزيرة أو غابة .

ولعل قائلًا يقول إن كثيراً من الأفراد لا يشتركون اشتراكاً فعلياً في

== على الأقل من معاصري سنة ١٠٠٠ باعتبار أن في كل قرن ثلاثة أجيال . ويقول
إن جميع سكان كل ناحية أو إقليم يشتركون حتماً في أجدادهم فهم مخلوقون من طينة
واحدة وعليهم كلهم طابع واحد .

النشاط الاجتماعى الذى هو بالدرجة الأولى — مصدر المسئولية فكيف يحاسبون على ما لم يشتركوا فيه ؟

والرد على ذلك ممكن من عدة وجوه .

إن عدم مساهمة بعض أفراد الشعب فى نشاطه الاجتماعى هو نفسه جرم كبير يستحق عليه المؤاخذه . لأن الأوضاع الاجتماعية تهم الأمة كلها وتؤثر على مستقبلها ووجودها تأثيراً بالغاً . فكيف يدع بعض أفراد الشعب . المسئء دون توجيه ، والمحسن دون تشجيع وكيف يتركون ميدان العمل الجماعى لقلة من الناس تنفرد به وتعيث فيه فساداً . إنه تنصل من المسئولية لا يقبل . واطراح للعبء بعد التعهد بحمله ، ونكوص عن المضى فيه إشاراً للعافية . وتفضيلاً للراحة ، وزهداً فى العمل ، واعتماداً على الغير ، فتشخيص الموقف الحقيقى ليس هو عدم الاشتراك ، وإنما هو الاستخذاء وهم يشاركون بذلك فى جرم القادة وجنائهم بقدر ما يفرطون فى حقوقهم ، ومسئولياتهم .

ومن ناحية أخرى فأننا قد قلنا ان الشعب يكون وحدة لا تتجزأ ولا يمكن أن يكون بعض هذه الوحدة مسئولاً ، وبعضها الآخر غير مسئول ، وحتى لو افترضنا إمكان وجود جزء مسئول ، وآخر غير مسئول فلا مناص من تقرير مبدأ الأغلبية والأكثرية لأنه الإجراء الوحيد الذى يمكن الأخذ به فى حالة الجماعات . والقرآن الكريم كثيراً ما يأخذ بهذا المبدأ . ويبين مسئولية الانحلال على فساد الأكثرية ^(١) ، وضالة عدد المؤمنين وقتلهم ، وان كان فى حالات أخرى يوضح لنا أن رحمة الله كثيراً ما تغلب على قسوة الجزاء ، أو استحقاق العقاب ، فينجى القلة المؤمنة من العذاب الذى حق على الكثرة

(١) تأمل هذه الصيغة مثلاً « أليس فيكم رجل رشيد ؟ » والآية الأخرى « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » .

الضالة . ولعل أربع الأمثلة على ذلك هي الآيات التي توضح لنا كيف تتغلب قوة العقيدة ، على قوة الوسط فترى الكفر في بيت الأنبياء ! و ترى الإيمان في قصر فرعون ، و ترى كيف أنجى الله المؤمنين ، قاب قوسين من العذاب ، وكيف أهلك الكافرين أدنى ما يكونون إلى الناجين « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخثتاها فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل اهلكا مع المالكين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة . ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا » .

وفى آيات أخرى نرى أقوام نوح ولوط وهود وشعيب وفرعون وقد حق عليهم العذاب إلا قلة من المؤمنين اتبعوا الأنبياء . وجاهدوا معهم ، ولم يسلكوا خطة التسليم والاستخذاء . فأخذوا معهم . ونجوا من العذاب .

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ » « فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خذى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز » « قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟ » .

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » .

وليس هناك تعارض بين ما تذكره هنا عن المسئولية الجمعية وبين ما ذكرناه فى الباب الأول عن فردية المسئولية لأن المسئولية هنا — مسئولية

وظيفية — يحاسب فيها الأفراد كجزء من الشعب ، وعلى واجباتهم وحقوقهم كأفراد في الشعب ، لا كأحاد مستقلة لا كيان لها ولا صلة بينها .

وأخيراً فيجب أن يكون معلوماً أن ليس هناك تحجاف قط بين توقيع هذه المسؤولية ، وبين مبادئ العدالة . لأن المسؤولية تشمل الحقوق كما تشمل الواجبات . فبمقتضى هذه المسؤولية يصبح للفرد حقوقاً في المجتمع ، حقوقاً في المشاركة السياسية والتكافل الاجتماعي . ولما كان الإنسان اجتماعي بطبعه ، وكانت المجتمعات الإنسانية أمراً لا مفر منه ، فإن ملاحظة هذه المسؤولية ليست فحسب أمراً يتفق مع مبادئ العدالة ، بل هو أمر تستلزمه وتقضيه طبائع المجتمع الإنساني . وقد وقعت الديمقراطية في خطأ جسيم هو تقدير الحقوق والواجبات على أساس فردي خافت على الفرد من حيث أرادت التحرز له والحرص عليه ، إذ ضحت بالأكثرية في سبيل الأقلية ، ومكنت الأفراد الأقوياء — وهم أقلية — من هضم الأفراد الضعفاء وهم الأكثرية ، فانتقصت من حرية المجموع بحجة الحرص على حرية الفرد . ولو لحظت المعنى الجماعي لما تورطت في هذا الخطأ . ومن أجل هذا فإن المبدأ الشيوعي « في الجماعة المنظمة وحدها ، يجد الفرد فرصة لتنمية مواهبه وميوله ، ولهذا لا تتوافر حرية الفرد إلا في جو المجتمع الجماعي » ، أفضل للشعوب من ثروة الديمقراطية عن مساواة جميع الناس ، وإن كان المبدأ الشيوعي يخطئ حين يرتب على مقدمته السليمة تحريم تعدد الأحزاب ، أو كبت المخالفين له بالقوة وإنه لخطأ شنيع .

ولقد حاولت الديمقراطية إصلاح نقصها من الناحية المادية بمشاريع التأمينات ، ولكن عدم وجود أساس فلسفي جماعي ترتكز عليه هذه المشاريع انتقص من قيمتها في النفوس . فحاولت الديمقراطية إصلاح هذا

الآخر بفكرة « الضمير الاجتماعى » ولكن فكرة الضمير الاجتماعى أقرب إلى فلسفة الإحسان والعطف منها إلى فلسفة اجتماعية ثابتة ، ولم تأخذ بعد شكل الإلزام . وفى نظرنا أن المسئولية الجمعية فى القرآن تحقق هذا الإلزام ، والأساس الفلسفى ، وتفتح فى الوقت نفسه باب الحرية الذى أغلقته بقسوة النظرية الشيوعية .

— ٣ —

مسئولية الشعوب عن الانحلال : الاستخزاء

بعض النظريات السياسية تجعل من الفرد ، وبالتالى الشعب ، تابعاً للدولة . . . ووسيلة لها . . . يفتى فى وجودها العظيم وتتدغم شخصيته الفردية فى شخصيتها الجماعية ، وتجعل للقادة نصيباً من الحكم والسلطة تتناسب مع قدر الدولة الجسيم ، ومنزلتها السامية ، وتلزم المحكومين الطاعة المطلقة للحاكمين .

وهناك نظريات سياسية أخرى تجعل الشعب الغاية والدولة الوسيلة وتدع الشعب أن ينتخب الحكام بنفسه وتمكنه من اسقاطهم حتى يأمن تحكمهم .

وبين هذين مذاهب أخرى تعترف بحق الشعب فى الحرية والسيادة ، وأن يكون الغاية التى تعمل لها الدولة ، ولكنها ترى أن إرادة الشعب وغائته ليست مطلقة . وإنما هى مقيدة بعوامل التطور المادية .

وتمثل النظرية الأولى الديكتاتورية والفاشية ، والثانية الديمقراطية ، والثالثة الشيوعية والماركسية .

فأين يضع القرآن الشعوب بين هذه المذاهب ؟

من الواضح أن القرآن يستبعد المذهب الفاشي والديكتاتوري لأنه لا يسمح بتقديس الدولة . وإفناء شخصيات الأفراد فيها . ولا يعطى القادة تلك القوة المغالى فيها . . أو يلزم الشعوب الطاعة المطلقة لهم .

ومن الواضح أيضاً أن القرآن لا يؤمن بتلك الجبرية الاقتصادية أو يقبل سيطرة المادية على بقية نواحي الحياة وينفر من تغليب ناحية على أخرى ، لأن مثله الأعلى هو العدل والأتزان .

وبذلك يستبعد القرآن وضعية الشعوب في المذاهب الفاشية والشيوعية . ومن المحقق كذلك أن النظرية الديمقراطية — أى سيادة الشعب وغايتها — كانت دائماً ، وما زالت ، مثلاً أعلى ونزعة « طوبية » لم تتحقق قط . كما وضعنا ذلك في الفصول السابقة عند ما تحدثنا عن مسئولية القادة . وحتى الآن لم توجد الحكومة التى تطلبها لنكون « حكومة الشعب بالشعب وللشعب » ، أو تظهر الحكومة التى تجعل الإنسان غاية فى ذاته ، كما كان يريد « كانت » .

صحيح إن الديمقراطيات الغربية قد سارت شوطاً كبيراً فى سبيل ذلك ، وحقت درجات لم تحقق قبل ، واستطاعت أن تحطم استبداد الدولة القديم ، ولكن من الصحيح كذلك أن نهاية الشوط ما زالت بعيدة جداً ، حتى إن الباقي من آمالها أكثر مما قطعت ، فضلاً عن أنها تنعكس فى لحظات فتعود إلى شر ما كانت عليه .

وذلك يعود إلى أن الديمقراطية تناست اعتبارات لا يمكن إهمالها تمس طبائع الأشياء ، وضرورات الاجتماع والنفسية البشرية ، وموقف الإنسان من البيئة المحيطة .

ومن السهل أن نقول إن حكومة الشعب بالشعب وللشعب ، مثل أعلى

جميل ، وإن الإنسان غاية في ذاته ، غاية ما بعدها غاية ، على أن يكون ذلك كله من الناحية النظرية ، ومن وجهة نظر الإنسان .

أما في الأديان قاطبة ، فمن الطبيعي أن لا يكون الإنسان الغاية التي ما وراءها غاية ، وأن يكون الله هو الغاية .

وقد يبدو هذا انتقاصاً من قيمة نظرة الأديان إلى الإنسان . ولكن هذا خطأ ، فالإنسان يجب أن يأخذ حقه حسب ، لا أكثر منه . وقد فشل الإنسان كآله ، ولم يستطع أن ينظم كونه الصغير والفكرة المزهوة عن الغائية . والحريات قد شطت به ، فأوجدت الحروب ، وابتدعت قنبلة ذرية تزلزل الأرض تحت قدميه .

وكما فكرنا في القصور البشرية ، وضعف الإنسان ، وتعمقنا من ناحية أخرى في جسامته السكون ولانهايته ، كلما أحسنا بحاجة الملحة إلى التواضع وصغرت أماننا ضروب الاهتمامات الإنسانية المبالغ فيها دون حق ، واقتربنا شيئاً فشيئاً من ذلك العالم الفلسفي الذي سألوه ذات يوم : هل صحيح أن الإسراف في استخدام القنبلة الذرية يمكن أن يدمر الأرض ؟ فأجاب : هذا لا يهم ، فإن الأرض ليست هي أكبر الأفلاك !

ولعمري إن تلك الإجابة ، إذا ضمت إلى النظرة المثالية الغائية ، توضح لنا مدى مفارقات النظرة الجانية المفردة ، والتحيز دون تقدير باقي النواحي . فهذا الفيلسوف الإنساني المطلق يرى الإنسان غاية في ذاته ليس وراءه غاية ، سخرت له السموات السبع والأرضين . ولكن العالم الكوني التائه بين النجوم لا يابه كثيراً لسمار الأرض التي يقف على بضعة أشبار منها ، بحاجة أنها « ليست أكبر الأفلاك السماوية ! »

ولو أنهما التقيا ، لأمكن أن يخرج من أقوالهما وجهة نظر قريية جداً من وجهة نظر القرآن .

فالقرآن يرى أن الفاشية والشيوعية يسرفان في التحكم ، ويضيقان من الحرية ، ويلزمان الشعب ضروباً من الالتزامات ما أنزل الله بها من سلطان ، كما يرى أن الديمقراطية تسرف في حرياتها حتى تصل إلى الفوضى وإلى استغلال الغنى للفقير ، وظلم الكبير للصغير ، واستعباد القوى للضعيف ، فلا تتحقق حرياتها إلا لطائفة قليلة من الناس ، على حساب البقية الكبرى للشعب .

والإنسان ليس تبيعاً مسلوب الإرادة معدوم الحرية أمام عجلة التطور ، ولا هو كذلك غاية ، يأمر من كوكبه الصغير فتأتمر بأمره الأفلاك ، أو حتى يهيمن كما يشاء على شئون عالمه الأرضي .

ولكن القرآن يرى الإنسان « خليفة » الله في الأرض ، أبدعه ونفخ فيه من روحه ، ثم ابتلاه بالشیطان ليكون الخير والشر فتنة ، وأنزله الأرض يرتع فيها ، ومنحه نصيباً من الحرية والإرادة يستطيع به أن يميز بين الخير والشر ، وأنزل في جذر قلبه الأمانة ، وأجرى في دماائه الشياطين ، ثم أرسل الرسل والأنبياء ليواجهوا إغراء الشياطين ، وليحملوا دعوة الخير ، كما يحمل الشيطان دعوة الشر ، ووضع لهم في هذه الأديان طرق النجاة وسبل السلام ، فإن اتبعوها فازوا . وإلا جوزوا في الحياة الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً .

فالإنسان خليفة الله ، فضله على الملائكة ، وأمرها أن تسجد له . وبذلك يقترب الإسلام جداً من المثل الأعلى الديمقراطي الذي يجعل الإنسان غاية ،

إذ أن خلافة الله في الأرض ، هي أقصى ما يمكن أن يمنحه دين أو يطمع فيه الإنسان نفسه إذا آمن بالالوهية .

ولكن يجب أن لا ننسى أيضاً ، أن الله فوق الإنسان ، وما أصغر وجود الإنسان إزاءه ، إن عليه أن يسجد لله ، كما سجدت له الملائكة ، إنه ليس حراً ، وإن كان الله وحده هو المسيطر .

فهذه الوضعية المحكمة الفريدة ، بين الحرية في الأرض والسيادة على الكائنات ، وبين الاستخلاف من الله والالتزام بأوامره ونواهيه ، هي وضعية الإنسان في القرآن ، وهي وضعية الشعوب ، لأن الإنسان اسم جنس ، تمثله الجماهير والملايين .

فالشعوب حرة ، غير ملتزمة إلا بالقانون السماوي الذي هو كالجلب السرى يصل بين الابن ، والأم ، يربط بين الإنسان ، وبين سمائه ، التي منها نزل . وإليها يعود .

ومن هنا لزم أن يأتي الوحي . . وأن يقوم بدوره بين السماء والأرض ولزم أن يوجد الأنبياء ليكونوا القلوب الصافية الأمانة ، والأوعية النقية الطاهرة التي يتنزل عليها هذا الوحي « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المرسلين » . ليلغوا قانون السماء إلى الإنسانية ، وليس لهم من الأمر شيء ، فهم لا يأتون به من عندهم ، ولا يزيدون عليه ، ولا ينقصون منه ، ولا يلزمون الناس طاعة أو حقاً غير تلك اللازمة لتحقيق القانون السماوي ، وتأدية الرسالة التعليمية .

وقد انتهى عهد النبوات . وفي ذلك مغزى كبير إذ هو إيدان نبيلوغ البشرية سن الرشد واستطاعة العقل البشري الاحتفاظ برسالة الأنبياء .

وقسم لنبي الإسلام أن يكون الوصى الأخير على العقل البشرى الذى يسلم إليه الأمانة مثلة فى كتاب بعد أن كان الاعتماد فى الرسالات النبوية على المعجزات الحسية للمعوسة (١). و انتهى بذلك إلزام الإنسانية الطاعة لشخص معين اختاره الله ، وانقطع جبل الوحي الذى كان تنزل عليه آيات لا تملك البشرية أمامها إلا الخضوع والتسليم ، لأن القوى البشرية لا تبلغ مداها أو تدرك شأوها ، وآل الأمر إلى الناس ، إلى أمانة قلوبهم وأبتداع عقولهم ورياسة القادة والعلماء والنابعين فى كل علم وفن .

فلئن لم يكن للأنبياء أن يزيدوا على رسالتهم أو ينحرفوا عنها . فأحر بالقادة أن تضيق دائرتهم وأن يكون للشعوب أمامهم قدراً أعظم من الحرية ليس فحسب بإلزامهم آداب القيادة التى أشرنا إليها فى فصل سابق ، بل أيضاً يمنحهم الحق فى أن يشوروا عليهم ، بل إنه يوجب عليهم إيجاباً ، فإذا لم يفعلوا قصرُوا فى استخدام حقوقهم ، وشاركوا فى مسئولية بغى القادة وفسادهم .

وليس أدل على ذلك من أن القرآن لا يعيب على الشعوب شيئاً كما يعيب عليها استخذاءها للحكام وخضوعها للقادة ، فى غير ما أمر الله أو أوجب دستورهِ والاعتذار بالحجج الواهية « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً إلا المستضعفين من الرجال

(١) لعل مما يفهمنا حكمة ذلك أن العقل البشرى قد حفظ بالفعل رسالة الأنبياء ، واختراع المطبعة ، واختزال الأبعاد ، وارتباط العالم حال دون تحريف الرسالات النبوية ، وأمكن تبليغها إلى العالم كله دون الحاجة إلى أنبياء ، كل فى قومه ، أما قبل ذلك فقد حمل الاسلام نفسه دعوته بالفتوح والتبشير إلى كافة أنحاء العالم .

والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً أولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيماً .

ومما يستحق التأمل أن كل الأنبياء تقريباً إبراهيم ونوح وموسى وعيسى ولوط قد هاجروا ، كأن الهجرة مرحلة لازمة من مراحل كفاح الرسالات النبوية ، الأمر الذي يصدق أيضاً على كل دعوة مخصصة جديدة ، حتى أصبحت الهجرة والاعتراب إحدى قرائن الدعوات ، ودلائل صحتها وإصالتها .

على أن الهجرة ليست إلا أضعف الإيمان ، والمرحلة الأولى من مراحل الجهاد الشعبي عند ما يكون عدد المؤمنين من الضالة بحيث لا يستطيعون أن يقوموا بجهد يذكر . أو يخشى على حياة القادة والزعماء ، فتجب عليهم الهجرة حتى يحفظوا الأمانة ، ويضمنوا بقاء الدعوة التي يدخرونها بين جناباتهم ، أما بعد ذلك فليس إلا القتال ، أو باللفظ المتداول « الثورة » .

« ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم؟ وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم؟ فإله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين »

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلاوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم . وكان الله سميعا عليا » .
ولا يخفى على القارئ ما في هذه الآيات من حث قوى واضح ومن
استفهام إنكارى وتبكيث ضمني واختيار للالفاظ الحية التي تعطي الصفة
الشعبية ، وتصوير ما يحق بالشعوب من ظلم أو اضطهاد ، وما يقع عليها من ضعف
ككلمات المستضعفين ، الرجال ، والنساء ، الولدان ، القرية الظالم أهلها ،
الذين أخرجوا من ديارهم ، ثم هو يقرر في الحتام دفع الناس بعضهم ببعض ،
وأن الوسيلة لرد عدوان العادي وحفظ الدمار ، ولولاه لهدمت بيع وصوامع
ومساجد ، يذكر فيها اسم الله .

وعاب القرآن على المؤمنين الخوف من القتال والإحجام عنه ، فقال
« يا أيها الذين آمنوا ، ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى
الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة
إلا قليل الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا
والله على كل شيء قدير » .

« فرح الخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم
وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا
لو كانوا يفقهون » .

« ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . فلما
كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية
وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا
قليل . والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا » .

« فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك . وحرض المؤمنين عسى الله أن

يكف بأس الدين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً .

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى . وفضل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .

« ولا تمهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تأملون فإنهم يأملون كما تأملون ، وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً » .

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

« ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلون ؟ قالوا وما لنا لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا . فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين » .

« وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » .

وصور القرآن في عدة آيات النقاش الذي يدور في النار بين المستضعفين والمستكبرين ، بين الشعوب والقادة حول مسئولية الضلال والانحراف على

من تقع ، الضعفاء يعتذرون بأن الكبراء أغروهم ، والكبراء يتصلون ويستغلون بأنفسهم عن غيرهم ، ووضح القرآن أن هذا الاعتذار من إغراء أو تسليم أو وعد أو وعيد أو استخذاء أو تبعية لا تعفى الشعوب قط من المسؤولية أو ترفع — أو حتى تخفف — عنهم العذاب .

« ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار . كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أخرجهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فأتهم عذاباً ضعفاً من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

« ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول . يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أتمم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم . بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار . إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب إذ يتحاجون في النار . فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً لم فهل أتمم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها . إن الله قد حكم بين العباد » .

« وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس فجعلهمنا تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » .

« قالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » .

« وبرزوا لله جميعاً . فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً

فهل أتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء . قالوا لو هدانا الله لهديناكم .
سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » .

« إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا . ورأوا العذاب وتقطعت بهم
الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك
يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم . وما هم بخارجين من النار » .

« وما أضلنا إلا المجرمون . فمالنا من شافعين ولا صديق حميم . فلو أن
لنا كرة فنكون من المؤمنين » .

« وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين
كنا ندعو من دونك فالقوا إلیهم القول إنكم لكاذبون » .

وليس هناك ما هو أشد وضوحاً ، ولا أقوى تصويراً لمسئولية الشعوب
ومغبة تسليمها ، وحسرة خضوعها من هذه الآيات .

فلو أن الشعوب الإسلامية كانت تقرأ القرآن بغير القلوب المقفلة ،
والضمائر الحاملة ، لكان لها منه وازع أى وازع ، ودافع أى دافع ، للتخلص
من ربة السادة والتحرر من طاعة الكبراء ، والنجاة من مصير المشركين .

مسئولية الشعوب الاجتماعية عن الانحلال : مخاربة الدعوات

هل معنى ذلك أن مسؤولية الشعوب عن الانحلال تقتصر على الخضوع
والاستسلام للطغاة والملوك والأمراء والصدوف عن القتال ، والزهد في
المشاركات الاجتماعية الواجبة ، والانزواء في أصداف الطاعة التنتة ، حرصاً
على أكل العيش ، وشرب الماء ، كأنما ارتد الإنسان حيواناً أو مسخ قرداً

لا هم له إلا الأكل والشرب ، ولا حفاظ له يرعاه إلا الفم والفرج . . . ؟ ؟ ؟
نقول إن مسئولية الشعوب لا تقتصر على ذلك بل إن لها أيضاً نصيب
— كالقادة — في رفض الدعوات وحرب المصلحين وعصيان الأنبياء ،
فيا عجباً للشعوب تستعجل السيئة قبل الحسنة ، وتدعو إلى النار من يدعوها
إلى الجنة وتكون لظالمها ظهيراً على دعاة الإنقاذ والحرية .

حقاً إن هذا أمر يشكل على الباحث ، فمن المعقول أن يحارب الكبراء
والترفون والأغنياء والكهنة ومن إليهم الأنبياء والرسل والمصلحين الذين
يحررون القطيع البشري ، ويبددون ظلمات الجهالة المطبقة عليهم ويرفعون
عنهم إصرهم والأغلال التي عليهم ، أما أن تشارك الشعوب في ذلك ، وتظاهر
ظالمها على محرريها فهذا أمر عجاب .

لكن فهم كيف يتأتى ذلك .. يجب أن تقدر قيمة العوامل الضاغطة على
الشعوب . وفعل العمل المنظم الذي ينتظم جماهير الناس ويسلط بعضهم على
بعض وأثر الترويض الدليل الذي يفرض فرضاً على الأغلبية الساحقة من الناس
من المهدي إلى اللحد .

لهذه العوامل قوة طاغية . ولما كانت القلة هي التي تنظمها لحسابها فإنها
تهدف بها إلى تخطيم كافة قوى المقاومة في النفس وإخماء المميزات الفردية ،
وصهر الشخصية الخاصة في بوتقة القطيع ، لا يستثنى من ذلك الأعمال
التنظيمية ذات المظهر الشعبي . كالاتخابات مثلا التي تكمن وراءها القلة
تديرها لمصلحتها .

انظر إلى قوة العمل المنظم في الجيش والبوليس ، لماذا تحارب تلك
الجموع الكثيفة ، والقطعان للقادة — الجيوش — بعضها بعضاً ؟ إن من

المؤكد أن الجنود لا يفهمون شيئاً في السياسة العليا ، ولا يرون مبرراً لكي يضحوا بنفوسهم الغالية ويقتلوا غيرهم ، وإنما قيل لهم اذهبوا ، فذهبوا ، صدرت إليهم الأوامر ، فانتظموا في موكب الموت أشد انسياقاً من قطع من الحملان ، يذهب إلى المرعى ، ولعلمهم ليسوا في حاجة دائماً إلى إصدار الأوامر ، لأن الأوامر قد غرست أغواراً عميقة في نفوسهم وتفكيرهم ، ومرتهم مراناً آلياً ، فما أن يرى الجندي ضابطاً حتى يرفع يده بالسلام العسكري ، دون أن يطلب إليه ذلك وإذا عوتب في أمر ما صرح بأعلى صوته انه « عبد المأمور » دون أن يستشعر مهانة أو ذلة .

فإذا أردت أن تعرف مصدر هذه الطاعة وسرها ، فانم النظر في المراتب العسكرية ، وحلل طرق « الضبط والربط » ابتداء من ليلة التجنيد الأولى ، حتى الليلة الأخيرة ، إن كل حركة منها ، من قص للشعر ، أو إلزام للتكشف ، أو أمر بالطاعة العمياء ، أو فرض لأساليب الضرب والشتم ، أو تجريد لحق الاعتراض ، ومنح من هو فوقه « بشريط » حق الحبس ، والإيذاء ، والعقاب ، ثم بعد ذلك هذه « الطواير » المتتالية . إن كل إجراء من هذه الإجراءات إنما قصد به الإذلال وهدم الشخصية ، والبطش بأي معنى خاص أو اعتزاز أو تحرر ، وتحسين الطاعة والنظام كأنها الفضائل الحقة . هذه هي الوسائل التي تجعل من جندي الجيش « نفر » ، أو « دفعه » (١) ، وتصيره رقماً يندمج بدون تمييز في الرقم الكلي فلا ينظر إليه كإنسان أو إرادة ، وإنما أداة وحسب ، فإذا صدرت الأوامر إليه باطلاق الرصاص ، أطلقه ،

(١) لعل تداعى المعاني يذكرنا بلفظة أخرى تطلق على قطع آخر من الإنسانية المسخرة ، لفظة « الإرادة » التي تطلق على مسجونى اليوم . إن تجرد هذه الألفاظ من من الدلالة الإنسانية ، ومعناها الجماعى المادى يستحق التفكير حقاً .

ولو على آله وإخوانه ، وإذا قيل له « إضرب يا عسكرى » شرع عصاته وأخذ يضرب بلارحمة ، وإذا طلب إليه اقتياد عشرة أو عشرين من الشحاذين أو الباعة المتجولين ، قادم دون أن ينال منه حالتهم البائسة وفقرهم المدقع ، وإذا ارتفع صوت البروجى نفذت إشارته بطريقة لا شعورية ، كما هو صوت القضاء والقدر ! فعند ما حاول الحديوى توفيق ورياض باشا تهدئة ثائرة الجنود المتمردة فى الآلاى الثالث قبيل مظاهرة عابدين (٩ سبتمبر سنة ١٨٨١) المشهورة ، وأطال معهم الحديث ، ضرب البروجى نوبة « سونكى ديك » ، فركب الجنود فوراً السونكى فى رؤوس بنادقهم . وكانت هذه النتيجة انتصاراً باهراً للأوامر المجردة ولسلطة البوق على كل العواطف الشخصية والمشاعر الخاصة ، التى ولا بد أثارها حضور سيد البلاد الشرعى ، واسترضائه للجنود .

وليس من الضرورى أن يكون الفرد عضواً مجنداً فى الجيش لى تمحى شخصيته . إن نشأته فى بيئة قاسية ضيقة رتيبة تنتهى به إلى النتيجة نفسها كما فى أبناء الرقيق الذين كانوا ينشئون فى بيئة العبودية وأبناء الطبقات الدنيا الذين يربهم آبؤهم ليكونوا خدماً لأبناء سادتهم ، كما أنهم هم أنفسهم خدم لهؤلاء السادة . وهو وضع للأسف الشديد منتشر فى كثير من البيئات الشعبية (١) ، التى ينشأ جمهورها على الاستكانة إلى الواقع والرضا به ، وتكيف شخصياتهم على هذا الأساس .

يهتف مصلح جرىء بالفلاح المسكين الذى قضى سحابة عمره يحرق قطعة

(١) إن كلمات « سيدى » و « سنى » التى ينطق بها الخدم والأتباع فى مصر ومنحونها طواعية حتى للأطفال وبنات الأسر التى يخدمونها ، هى خير دليل على مدى الاستكانة إلى الوضع ، وتأثير البيئة .

صغيرة من الأرض ارتوت بالعرق أكثر مما ارتوت بالماء » أيها الفلاح الذى تشق الأرض بمحراثك ، لماذا لا تشق به قلب مستعبذك ؟ ^(١) . فإذا يجد يجد ابتسامة بلهاء ، لا فهم ولا صدق ولا استجابة ، ويحس كأنه يتكلم بلغة أجنبية . وإذا أوعز الملاك إلى هؤلاء الفلاحين أنفسهم بقتله قتلوه ، ولن يطلبوا لذلك إلا ثمن العيار . ومن أجل هذا لا يخشى الملاك المصريون دعاة الشيوعية فى الريف المصرى البائس ، لأنهم يعرفون أن « دية » كل داعية هى بضعة مليات !

لقد انحدرت العبودية إلى هؤلاء الفلاحين لا فى أصلاب آبائهم وأجدادهم — رقيق الأرض السابقين — ولكن فى ثنايا الترويض التربوى والنظام الاجتماعى والاقتصادى الذى يفترض وجود سادة وعبيد . وما دام مثل هذه النظم موجودة ، فلا بد أن يوجد العبيد فى شكل فلاحين وأجراء ، لأن العبد كائن اجتماعى ، وليس كائناً طبيعياً [وهل يوجد فى مملكة النبات والحيوان سادة وعبيد] . وحياة هذا الكائن فى بقاء النظام ، وموته فى هدمه ، وذلك ما اهتدى إليه ببداهة الفنان ، توفيق الحكيم فى شهرزاد ، إذ عند ما يخشى العبد أن يقتله الملك ، تسأله شهرزاد :

— هل تعرف كيف يقتل العبد ؟

— كيف . . . ؟

— بتحريره !

وفى عدا ذلك فهناك عوامل أخرى تجعل الشعوب والجماعات تظاهر

(١) الكلمة ، أصلاً ، للسيد جمال الدين الأفغانى .

مستعبدتها ، وتقاوم محرريها ، وتستكين إلى الوضع القائم على ظلمه ، وتنفر من الوضع الجديد على عدله . . .

من هذه العوامل ان القلة الحاكمة ، دائماً غنية لديها المال . وهى تصطنع فريقاً كبيراً من غمار الشعب تمنحه القليل من المال وتبيحه جزءاً من السلطة فيكون لها الخادم الطيع والحارس الأمين . وقد كانت الجنود قديماً مرتزقة تشرع رماحها لحساب سيدها ، تحارب من حاربه وتسالم من سألهم ومثل هؤلاء الجنود المرتزقة نظار المزارع والتفتيش ووكلاء الدوائر الذين يتعسفون في جمع القروش لسادتهم من الفلاحين ويتفننون في طرق العسف والظلم إرضاء لرؤسائهم ومثلهم أيضاً هذا الجيش اللجب الذى يستخدمه الرأسماليون من رؤساء عمال وأمناء مخازن ، وبوليس سرى ، ومراقبي حسابات الخ ، ومهمتهم جميعاً استثمار الثروة الكبيرة وتنميتها وحفظها والدفاع عنها . وبهذه الطريقة الشيطانية يضمنون أن يعمل رؤساء العمال — وهم من العمال أولاً وآخرآ — لحسابهم لا لحساب العمال . وأن يضعوا في خدمتهم خيرتهم الشعبية وفهمهم لطرائق العمال . وقس على ذلك بقية الرؤساء في كل الطوائف الذين يتزعون من الغمار ليصبحوا حاشية الرأسمالى والكبير ووسيلته في حكم الشعب .

وقد يظن أحد ان من الممكن أن يخدم شخص ما الرأسماليين والسادة . ويضع نقودهم في جيبه ثم يستغفلهم ، وهذا مستحيل . لأنه لن يكون حراً . وستقيده طبيعة العمل واللوائح والنظم وطرق الجاسوسية . فضلاً عن أن أموال الرأسماليين محروسة بقوات الحرس والشح والجشع وهى قوات حساسة يقظة . لا يمكن أن تستغفل . وما من رأسمالى يعطى أجراً إلا وهو يتأكد أنه سيكسب أضعافه باسترقاقه للموظف وتحكمه فيه . وهو مصيب ولا شك .

وقد ثبت ان كون « الموظف » من الطبقة نفسها التى يسلط عليها ليس

من شأنه أن يعرضه للتفريط في حق الرأسمالى ، أو الميل إلى جانب طبقته . بل هو على العكس يكون أشد إفادة للرأسماليين من غيره ، أولاً لأنه سيكون من ذوى الخبرة المباشرة . وقد كان أشد الرقباء عنتاً للصحافة وتضييقاً على الكتاب هم من كانوا من قبل صحفيين أو كتاباً ! كما أن شخصاً مثل حسن رفعت باشا — مستشار شيكوريل — استطاع أن يستغل خبرته البوليسية كوكيل سابق للداخلية في أن يؤكد أن نصف هذا المحل سنة ١٩٤٨ لم يكن بلغم هوأى كما أذاعت الحكومة ! وما من أحد غيره كان يستطيع أن يقول ذلك . وثانياً لأن مثل هذا الموظف سيعمد إلى الشدة وطاعة النظم لأنه يخشى الظنة ويعلم أنه لانتسابه للطبقة الفقيرة مرشح للاتهام بالتشيع لها . وهو يقدم سلفاً ما يدحض هذا الاتهام ! . ولعل هذا أحد الأسباب التى تجعل العسكرى أسوأ من الضابط .

وأغلب الظن أن العبيد والغلمان الذين أطلقهم سادة ثقيف في أثر محمد صلى الله عليه وسلم عند عودته من رحلة الطائف ، لو تركوا لأنفسهم لآمنوا وجمعتهم به أكثر من آصرة واحدة . ولكن وضعيتهم فرضت عليهم حربه فخاربه .

وكما يستأنس الانسان فصائل من الحيوان ، ليستخدمها ثم يذبحها ، أو يحارب بها الفصائل الأخرى ، فكذلك يستأنس الرأسماليون أفراداً من الطبقات الدنيا ويطلقونهم عليها ، وهنا يحدث في المجتمع الانسانى ما يحدث في مملكة الحيوان ، فأشد الحيوانات على الذئاب هى الكلاب : فضيلتها المستأنسة ، وأشد الموظفين على الفلاحين والعمال هم الطبقة المباشرة لهم المستأنسة منهم ، وقد ترى في الصور التاريخية تابعا للملك يحمل بازى للملك المدرب على الصيد ، وهى صورة تمثل استئناساً مزدوجاً ، بل لعل التابع

المستأنس أشد استحقاقاً للنظر من البازي المستأنس ، فإذا لال وحش قد لا يكون شيئاً ، ولكن إذلال نفس وفكر شيء يستحق التفكير . ولا سيما وأن الإنسان المستأنس لا يقل في التمسك بوضعيته المهيمنة عن الحيوان المستأنس وتقلب في ناظريه مقاييس الأشياء . فالسيد الحقيقي في نظر الخادم هو السيد القاسى ، الشديد ، البذر ، الذى ينفق بسخاء على ملذاته ، ولا يقصر في إمتاع نفسه ، ويحيا حياة السادة المترفين وكلا زاد ذلك كلما تمكن معنى السيادة في نظر الخادم . ويزلزل هذا المعنى قصد السيد واعتداله ، فإذا تواضع قنزل إلى درجة ملاطفة الخدم ، فإن معنى السيادة يصاب بصدمة تهدده بالزوال وبأن يحل محله احتقار وتهاون بالسيد .

ومن هذه العوامل أن الطبيعة الإنسانية تستجيب لضروب الضغط والقسر ما دامت محتومة عليها . وهى ككائن حى تكيف نفسها حسب البيئة الجديدة ، حتى لا تهلك . وكما يكيف الجسم نفسه عند فقد عضو فتعمل الكلية الواحدة عمل الكيتين . وترهف بعض الحواس عند تعطيل الحواس الأخرى . فكذلك تدفع إرادة الحياة الغريزية الغلبة فى النفس الإنسانية إلى الاستجابة للوضع الاجتماعى وتكيف النفس على أساسه . بل وقد تزيد فتدفع له فلسفة الخضوع والاستخذاء بحيث يجد الفرد مبرراً . ويحس التذاذاً . ويستشعر الزهو فى الوضعية الجديدة فيقول « لى لنة فى ذلقى وخضوعى » ويرى الضيم أنه لا يضام^(١) ويبدع من أتفه الأشياء اعترازاً حتى من الأمور التى من شأنها أن تصم صاحبها بالهوان والصغار ، على حد قول الشاعر :

(١) قد تعيش النفوس فى الضيم حتى لرى الضيم أنها لا تضام
« شوقى »

لئن ساءنى أن نلتنى بملامة لقد سرنى أنى خطرت ببالكا

على أن التابع فى العادة لا يعدم أسباباً للزهو الرخيص فما من شك فى أن «الأسطى» خير من العامل، وأن البائع فى محل يتسامى على البائع المتجول وهذا بدوره يرفض أن يتساوى مع ماسح الأحذية . وعندما يرفع حاجب المحكمة صوته بكلمة «محكمة» فيستجيب له الناس بالوقوف، يرضى ذات نفسه، ويعوض حقارة وظيفته . ولا يهمه بالطبع إذا كانت المحكمة عادلة أو ظالمة ، بل لعله يسر إذا كانت الأحكام قاسية لأنها أبلغ فى الدلالة على سلطة المحكمة وهيبتها ، وبالتالي على أهمية النصيب الضئيل جداً الذى له فيها بصفته حاجباً !! كما يشعر كل من العسكرى . ونأظر العزبة بأهميته أمام البائع المتجول ، والفلاح ، ولما كان للخضوع للمأمور أو المالك ثمناً لا بد منه للحصول على تلك الأهمية الوظيفية أمام البائع المتجول والفلاح . فهذا الخضوع يؤدى أولاً بغضاضة ، ثم بقبول ، ثم برضا ، ثم يشير بعد ذلك زهواً والتذاذاً قدر تبدل المشاعر الأصلية وزيادة المشاعر الوظيفية ، وبتأثير ترابط الأشياء وتداعى المعانى واعتياده جزءاً لا بد منه فى العملية كلها . ومن هنا نفهم تعالى بعض الناس فى خدمة سادتهم ورؤسائهم حتى ليفوقوا هؤلاء فى خدمتهم لأنفسهم ويصبحوا «ملكيين أكثر من الملك» كما يقولون ، ذلك لأن هؤلاء الأتباع يعملون بوحى مزدوج من لذة الخضوع . واستكمال المنفعة . ولو قضى على سادتهم بالخدمة لصاروا مثلهم . فالنبيل فى العهد القديم كان يستشعر لذة فى خدمة الملك قدر ما كان يستشعر الفلاح لذة فى خدمته . والمأمور حالياً يقف «زنهار» أمام الحاكم ، كما يقف العسكرى أمام المأمور . وكل منهم لا يرى فى هذا ضيراً ، بل يستشعر زهواً لأن التحية العسكرية جزء من نظام يمنحه صنوفاً من الاعتزازات والتسلطات .

ولقد تصور أن بيئة عظيمة الانحطاط كتلك التي يعيش فيها البغاء كفيلة بتحطيم كبرياء أمحبابها وقتل كل أنواع الاعتزاز في نفوسهم . ولكن الواقع خلاف ذلك فمع أن البغى في شهورها الأولى ترزح تحت شعور الضعة والانحطاط ويأكلها الندم والألم ، إلا أن إرادة الحياة الغريزية ، وفعل البيئة المستمر ينقذانها من هذا الألم الجدير بالقضاء عليها . ويوجدان لها أنواعاً من الاعتزاز والكبرياء ويجعلانها تتقبل هذه الحياة . بل وتتحمس لها وتمسك بها [ما دامت تعلم أنها محتومة عليها لتلك الأسباب التي تحتم البغاء في المجتمعات المنحلة] فلا تلبث الفتاة الطاهرة الغريزة أن تقلب إلى بغى لعبوب ثم إلى « معلة » صناع تتفنن في شئون مهنتها التلسة . وتجعل همها إيقاع البريئات المسكينات في شبا كهـا . فإذا تحدث إليها متحدث عن الشرف والضمير أو رغب في إيقادها . ولو حتى بالزواج لرفضت . فقد مرنت حواسها ونفسها على هذا النوع من الحياة ، ولا تستطيع أن تغيره أو ترغب في بعث كوامن الندم التي استكانت وتكومت في جزء قصي من لاشعورها وانغمرت تحت أكداس الحاضر . وقد وضع ذلك « تلتوى » في روايته « البعث » تمام الإيضاح . كما كانت دائماً تقارير لجان إلغاء البغاء صريحة في عدم استطاعة إصلاح هؤلاء البائسات أو إلحاقهن بأى عمل .

ولعل هذا هو سر تحذير التشريع الإسلامى من الخطأ الأول . وبناءه تحريم الكثير على القليل . لأن الخطأ الأول سيثير في النفس مشاعر التبديد فيهن وقعه ويصبح احتمال تقبله مرة أخرى بهودة احتمالاً محققاً ، أو شبه محقق . وهو أيضاً مغزى تلك الألفاظ والجمل التي يوردها القرآن ويُعزى إليها جزءاً كبيراً من أسباب الضلال وتبرير السادرين لأفعالهم « مكر الليل

والنهار» «بل ران على قلوبهم» «طال عليهم الأمد» .

وأخيراً فإن الأفراد في مجتمعاتهم ارتقائيون ، فلسفتهم التقدم والنظر إلى الاكتمال . أما المجتمع في كليته فجامد ، فلسفته الثنائية والاستقرار والنفور من كل جديد « والفرد من ناحية أنه وحدة مستقلة في الحياة العضوية يسبق بفكره الجيل الذي يعايشه . أما الجماعات فهي في الغالب منبئة عن المدى الذي يصل إليه خيال الأفراد^(١)» .

لذلك تقاوم الشعوب والجماعات الدعوات الجديدة حتى إذا كانت شعبية وتنحاز الكثرة نحو المعارضة ، ولا يؤمن بها إلا أفراد قدر لهم أن لا يقهروا تحت تأثير العوامل الاجتماعية السابقة أو عظمت فيهم المواهب والمدارك حتى تغلبت على ما عداها من الآثار^(٢) .

تلك هي آثار البيئة التي تطبع الجماهير والجماعات بطابعها وتكييف النفس الإنسانية ، وتمسخ كثيراً من الطبائع الأصلية معها . وكل يوم يمضي ، تزداد قوة هذه الآثار وتعمق العوامل الاجتماعية في حياة الفرد . فالمطاعم العامة ودور السينما ، والصحافة ، وكل مكان يحتشد فيه الناس وكل وسيلة من وسائل التسلية تضمن لهم الخلاص من الوحدة المادية والنفسية وتعوض الفقر الروحي والفردى الذي أوجده عهد الآلات والجموع . . . تكثر . . . وتزداد . . . ويتضاعف كسب الرأسماليين ، وتأثير القادة واستغلالهم لهذه

(١) الأستاذ اسماعيل مظهر في مجلة الكتاب ج ٣ مجلد ١ يناير سنة ١٩٤٦ .

(٢) ولعل هذا هو تفسير ما يتصف به المؤمنون الأول بكل دعوة من عناصر امتياز . وإن كانوا من غمار الناس ولم تقسم لهم الثقافات الرسمية أو المراتب الاجتماعية فإيمانهم وصمودهم دلالة تفوق خلق ونفسى كبير .

الوسائل ، حتى تهن تماماً مقاومة الشعوب ، ويكون خلاصها منها شبه مستحيل (١) .

* * *

ومن أجل هذا تقاوم الشعوب والجماعات الأنبياء وتعارض المصلحين . وتشارك قادتها في إعنات أصحاب الدعوات الجديدة . ويمكننا أن نفرق بين مشاركة الشعوب ومشاركة القادة في القرآن : إما بكلمة الأكثرية التي ينص عليها القرآن صراحة « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » « فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله . إن يتبعون إلا الظن . وإن هم إلا يخرصون » « ولا تجد أكثرهم شاكرين » « وما وجدنا لأكثرهم من عهد . وإن وجدنا أكثرهم الفاسقين » « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً » « إن في ذلك لآية . وما كان أكثرهم مؤمنين » .

وإما بفهم السياق والمعاني لأن حرب الشعوب تعود إلى أسباب تختلف عن الأسباب التي من أجلها يحارب القادة الأنبياء وتتلاءم مع وضعيتهم ويثبتهم . . .

فبينما يحارب القادة عن عمد وإصرار وكبرياء . تستيقن نفوسهم صحة

(١) في عقيدتنا إن هذا الموضوع — البيئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية — لم ينل من بحث الكتاب ما يستأهله من العناية مع خطورته . ولقد لجأ الروس في تربيتهم للشعب إلى ما يسمونه سياسة التكييف Conditioning . وهي سياسة استخلصوها من أبحاث العالم الروسي المشهور بافلوف الذي كان يكيف سلوك الكلاب حسب إرادته بتجارب نفسية مبنية على ترابط الأشياء وغيرها .

الدعوة الجديدة . ويحجدون بها مع ذلك ، إذا بالشعوب والجماعات تحارب الدعوات عن تلك الغفلة التي وسمت طويلا القطيع الإنساني والجماعات البشرية تلك الغفلة التي تلحقهم بقطيع الأنعام — كما لا يفتأ القرآن يشبههم — بل لعلمهم شر من الأنعام . لأن الأنعام لم توهب الأفتدة والعقول والقلوب التي أنعم الله بها على الإنسان ليفيد منها وينتفع بها تلك الغفلة التي فرضها القادة على الجماهير والسواد فرضاً بأن حرموا عليهم العلم وسدوا في وجوههم أبواب التفكير وشغلواهم شغلا بمشكلة الرزق والعمل اليدوى المرهق الذى لا يدع لهم وقتاً ولا مجالاً للتفكير ، فضلا عن التنظيمات الاجتماعية والرأسمالية الدقيقة التي أشرنا إليها والتي تهدف إلى تحطيم مقاومة الفرد .

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها . ولهم أعين لا يبصرون بها . ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » .

« قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول . وإنا لنراك فينا ضعيفاً . ولولا رهطك لرجمناك » .

« فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه . وفي آذاننا وقر . ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إناعاملون » .

« قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدكم دعائى إلا فراراً . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم » .

« قالوا سواء علينا أوعظت أو لم تكن من الواعظين » .

« قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » .

ففي هذه الآيات جميعاً تتمثل صورة قوية للابتسار الشعبي والفجاجة العامة وإغفال للتفكير والاستهتار دون أى تقدير للعواقب .

وفي آيات أخرى يوضح سطحية الجماعات وعجزها مرموزاً بالظن أو الشك أو السخرية .

« وإذا قيل لهم إن وعد الله حق . وإن الساعة لا ريب فيها ، قلم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين » « وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب » .

« ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ، ويلههم الأمل فسوف يعلمون » .
« وكم أرسلنا من نبي في الأولين . وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون » .

« فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون » .
« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » .
« يا حسرة على العباد ! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » .
« أفمن هذا الحديث تعجبون . وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون » .
« ذلك بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتم الحياة الدنيا » « وإذا رأوا آية يستسخرون » .

فهذا تصوير للعجز عن القطع والبت وفرار من إبداء الرأى أو إعمال الفكر حتى الوصول إلى النتيجة التى يُطمأن إليها والتعلل بشق الحجج والارجاء والتسويق والسخرية التى مصدرها مركبات النقص لا التى مصدرها — كما فى سخرية القادة — تعالى والكبرياء والاعتزاز .

وقد يقال ما للشعوب الشقية الكادحة ، والركون إلى اللهو ، أو التعلل بالآمال ! الواقع أن الأكل واللهو والآمال هما غذاء الشعوب . وثمة مثل يقول « لو كانت الأمانى خيولاً لركبها الفقراء » كما تبلور الصيحة الرومانية أمانى الشعوب الخالدة فى الشعار المقتضب « خبزاً وألباناً » التى صورها القرآن بدقة ، مبرزاً زيادة عليها أمانى الغفلة « ذرهم يأكلوا ، ويتمتعوا ، ويلههم الأمل . . » . وقد شاهدنا مصداق ذلك فى جمهورنا . فعندما اثالت على طبقة العمال نقود « الأورنس » أو بعبارة أخرى الأجور المرتفعة للعمل فى الجيش الانجليزى استأثر اللهو بالنصيب الأعظم منها . مثلاً فى النساء والحشيش : فتزوجوا مثنى وثلاث ورباع . وانتشرت أفلام الحرب الراقصة التى كان جمهورها الأعظم هو العمال . ولست أشك فى أن القفزة التى قفزتها الراقصات ، من الحانات المنتنة والمراقص الخلوية إلى أضواء السينما الباهرة والأرقام الخيالية للأجور إنما يعود بالصفة الأولى إلى تشجيع العمال . والأمر كذلك فى تجارة المخدرات ، فالخيز واللهو والتعلل بالآمال هى التعويضات التى تلجأ اليها الشعوب ، بشكل مباشر فيه الكثير من الفجاجة والعنف ، وتهدهد به الوحش الثائر فى أعماقها ، فيتخدر .

وقد يعرفون الدعوة ، ولكنهم ينكرونها إشاراً للقديم ونفوراً من الجديد « لقد جئناكم بالحق . ولكن أكثركم للحق كارهون » « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثروهم الكافرون » ولهذا السبب — إشار القديم والنفور من الجديد — يشتركون مع القادة فى التشبث بما ترك الآباء والأجداد ، وإن لم يترك لهم آباؤهم — على عكس آباء القادة — سوى إرث الشقاء والتعاسة ، ولكنهم يرضون به لأنهم قد مروا بأنفسهم على ذلك وراضوها ، فرنت واستراضت .

« إنهم القوا آباءهم ضالين ، فهم على أثرهم يهرعون » .

« إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

وهم لتعطيل ملكة الفكر عندهم يعجبون من أن يرسل الله بشراً للرسالة لا ملائكة ، ويطلبون المعجزات ، بينما يعجب القادة من أن يرسل الله بشراً دونهم في المركز الاجتماعي ، وبذلك يتفق الطرفان في حرب الرسول البشرية على اختلاف بواعث هذه الحرب وتباينها .

« إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء الله لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون » « قالوا أبشر يهودنا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد » « وقالو إن أتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزل عليه ملك لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

صراع الطبقات

في آيات كثيرة متعددة يذكر القرآن خاتمة المطاف ، وقسوة المصير . ونتيجة مسئولية القادة والشعوب عن الانحلال . وتصوير القرآن لهذه الناحية يحمل القارئ على أن يطيل الوقوف عندها ، ويطلع في أغوار نفسه خطوطاً عميقة . . لأنه لا يزجى الخاتمة إزجاء ميتاً . أو يلقي بها دون مقدمات كأنها بديهية يسلم بها القارئ ، ويسلم بها من تقع عليه الخاتمة من الشعوب والقادة ، أو يتحدث عنها من وجهة نظرية عقيمة ، لا . . . إن تصوير القرآن

للخاتمة تصوير قوى ، عاطفي ، مثير ، ملء بصور الصراع ، حافل بالحياة .
 إنه يخاطب المشاعر الحساسة ، ويرسم التشبث بالحياة والتهلك عليها ، عندما
 تصطدم بقسوة القادر ، ورهبة المصير . ولا ينهي الخاتمة إلا بعد صراع
 مرير ، يبلغ ذروته فجأة ، وفي آخر الساعات توقعاً للفاجعة .. الأمر الذي من
 أجله يرفض القرآن أن يجيب المشركين إلى تحديد ساعة مصيرهم . « حتى
 إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها
 أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » أو تصدر عما
 يرجون منه خيراً « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض
 ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر
 ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين » .
 عندئذ فحسب تفجأهم البطشة الكبرى والخاتمة العنيفة التي تطيح بكل شيء
 « بل تأتيهم بغتة ، فنبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون » .

والقرآن لا يورد ذلك كعمل فني فحسب ، يرى أن تصويره الخاتمة هذا
 التصوير يبلغ من المشاعر أقصاها ، ولكنه يهدف أيضاً إلى عدة قيم نفعية ،
 وآثار عملية ، فإبراز الخاتمة بتلك الطريقة يسهل ضرب المثل للأمم الأخرى
 فتكون أرجى للخير ، وأبعد عن الشر ، وأعظم استفادة من الأمم التي سبقها
 وحق عليها المصير . وهذا الهدف واضح جداً في الآيات التي تصور المصير
 « فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .
 « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » . « ولقد
 تركنا فيها آية يبينه لقوم يعقلون . وعاداً وعود وقد تبين لكم من مساكنهم » .
 « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . كانوا
 أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها » . « أفلم

يروا كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم . إن في ذلك
 لآيات أفلا يسمعون » . « وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم
 للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً . وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً
 بين ذلك كثيراً . وكلا ضربنا له الأمثال . وكلا تبرنا تتبيراً » . « ثم أرسلنا
 رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم
 أحداث فبعداً لقوم لا يؤمنون » . « وكم أهلكنا قبلهم من قرن . هل
 تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً » . « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا
 أنفسهم . وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » . « قد خلت
 من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .
 « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد . هل من
 حيص » . « كالذين من قبلهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً
 فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم .
 وخضتم كالذين خاضوا أولئك جبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم
 الخاسرون . ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم
 إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم .
 ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

ومن هنا تتضح لنا الناحية التهذيبية الاجتماعية في هذه الحواتم الرهية .
 فليس الغرض مجازاة الأمم الجزاء العادل . بل أيضاً ضرب المثل للأمم الأخرى
 عساها تهتدى .

ومع أن معظم الأمم التي ذكرها القرآن لم تهتد « وكلا ضربنا له الأمثال .
 وكلا تبرنا تتبيراً » . إلا أن ذلك لا يقلل من قيمة أثر هذا العامل ، بل هو
 على العكس ، يزيد من قيمته بالنسبة للأمم التي جاءت بعد هذه الأمم كلها .

وسنرى لماذا لم تهتد تلك الأمم التي ضربت لها الأمثال أو تتعظ بما سبقها .
 وفائدة أخرى يمكن أن يستخلصها القارئ إذا تتبع آيات الصراع .
 وتساءل عن الأسباب التي من أجلها يهتم القرآن بإبراز المعنى الديناميكي
 والحيوي ويطيل في تصوير الصراع . إنه عندئذ ينتهي إلى اكتشاف فلسفي
 عظيم الخطر . ذلك أن المنهج القرآني الفلسفي في تصوير الحياة منهج جدلي .
 ولقد كان الفلاسفة المسلمون يستطيعون استلزامه لالتهاء إلى المنهج الجدلي
 قبل هيجل وماركس . لأن القرآن يبرزه بشكل ظاهر جداً . فهناك أولاً
 تلك الآيات العديدة التي توضح هذا المعنى صراحة . وتذكر أن إرادة الله
 قد اقتضت هذا الصراع . بل وأرادت أن يستمر إلى أن يحكم الله — يوم
 القيامة — فيما كانوا فيه يختلفون . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض
 لفسدت الأرض » « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها . ولكن حق القول
 مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » « ولو شاء الله لجمعهم على
 الهدى » « ولو شاء الله ما أشركوا » « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة
 واحدة . ولا يزالون مختلفون إلا من رحم ربك . ولذلك خلقهم وتمت كلمة
 ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » « ولو شاء الله لجمعكم أمة
 واحدة . ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء . ولتستلن عما كنتم
 تعملون » « ولئن أئيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك .
 وما أنت بتابع قبلتهم . وما بعضهم بتابع قبلة بعض » .

ويظهر القرآن الصراع عريقاً عراقة الإنسان نفسه . فقد بدأ منذ أن
 رفع إبليس راية العصيان . وسمح الله عز وجل له بأن يحرق أساليبه مع هذا
 المخلوق السماوي « الإنسان » وبأن يتخذ منه « نصيباً مفروضاً » وأعوأناً
 من كل الطبقات . وتوسل الشيطان إلى ذلك بأن نظم مجتمعاً طبقياً مميزاً

يستغل فيه ما بين أفراد الناس من قوى وملكات ومطامع وأهواء فيرفع طائفة على طائفة . ويضع طائفة في موضع تجد فيه أن قوامها في ظلم الطوائف الأخرى . وبث الغرور في نفوس الأقوياء . والعجز والوهن والاستسلام في نفوس الضعفاء الخ . . ما أشرنا إليه في الفصول السابقة . فنتج عن ذلك شياطين الإنس والأتباع الذين يعتنقون الشراعتناقاً ، يدعون إليه ، ويروجون له ولا يزعمهم علمهم بالشر عن الإيمان به . ويتخذون عناد الأنبياء والمصلحين خطة دائمة ، وإلى هؤلاء يشير القرآن في يأس من الإصلاح يكاد يكون مطلقاً .

« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً . وإن يروا سبيل النجى لا يتخذوه سبيلاً . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها . ولكنه أخلد إلى الأرض » « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه بعد الله . أفلا تذكرون » . « كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها » « أنريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً » « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » « كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم » « إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » « ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا

إلا أن يشاء الله . ولكن أكثرهم يجهلون . وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن » « ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » « إنك لا تهدي من أحببت . ولكن الله يهدي من يشاء » . « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » « وإن تدعهم إلى الهدى لا يسمعون . وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » « وإن تدعهم إلى الهدى لا يتبعوك سواء عليكم أَدْعَوْتَهُمْ أَمْ أُنْتُمْ صَامِتُونَ » « وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً » « وقالوا مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا . وكانوا قوماً مجرمين » .

وقد يرتاع الإنسان لأول وهلة ، لهذا الضلال الذي حكم به مؤبداً على هذه الطوائف والأفراد ، أو لا يتصور الأسباب الوجهية التي تحملهم إلى الضلال . والإصرار عليه . ومحاربة الخير والعدالة . ولكنه لو تعمق في صميم المجتمع وما يعتوره من نقص وفساد وما فيه من تشابك وتعدد . وما للمصالح من إغراء . وما للأهواء من سيطرة . لحكم بأن المقاييس تهتز بشدة بين أيدي الناس وتتأرجح بين الاعتبارات النسبية . وإن الحياة كلها تهون عند كثير من الناس أمام تمسكهم بالاعتبارات الضالة أو المادية أو الشخصية فليس هناك داعٍ للتعجب من وجود كثرة عاجزة تستكين إلى الشر على علمها به أو قلة تؤمن بالشر وتحترقه ممن تتضافر فيها ، إلى جانب هذه العوامل ، الشذوذ في الحلقة ، أو العوج في الترية .

ولما كان الشيطان خالداً إلى يوم القيامة ، فعنى ذلك بقاء الصراع إلى

يوم القيامة ، وهذا أيضاً ما يبدو مروغاً لدوى النفوس الحساسة الساذجة
السطحية .

ولو تعمقت لأدركت أن كنه هذا الصراع هو ميزة الحياة الإنسانية ،
التي يفضل بها حياة الجماد والحيوان . الحياة لغاية وهدف وإرادة . إن
الأكل والشرب والنمو والتناسل تشاركنا فيه الحيوانات ، بل والنباتات ،
أما معركة المبادئ ، وأسلحة الفكر ، فهذه ما يتميز بها الإنسان وينفرد .

وهنا نلاحظ أفضلية تصوير القرآن للصراع وحتميته على تصوير ماركس ،
وهيجيل له ، لأن ماركس قد جعل الصراع يدور حول العامل المادى ، ولأن
هيجيل قد التمس النهاية له . أما القرآن فقد جعل الصراع حول « الفكرة »
وبرأ من ربطها بالدولة كما فعل هيجيل . وما من شك في أن الصراع حول
الأفكار أكثر انسانية من الصراع على الماديات . وقد ركز ماركس الانبعاثات
الانسانية في العامل المادى . أما القرآن فركزها في العامل الدائى بأسره أى
غلبة الذات على الحقيقة الموضوعية . فطوائف القادة من ملوك وأغنياء وكهنة
يغلبون ذواتهم ، والشعوب تتحايى على إشباع هذا العامل أيضاً بإبداعها
فلسفة الضعف والاستخذاء ، وبذلك تشارك القادة في المسؤولية . ومع أن
الصراع ينحصر بين طبقتين : طبقة المهتمدين ، وطبقة الضالين . إلا أن كل
طبقة منها تشمل طوائف اجتماعية واقتصادية وسياسية مختلفة . ومن هنا
يشمل الصراع العناصر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ولو ضل ماركس
إلى ذلك لكان عليه أن يضع برنامجاً سياسياً واجتماعياً لفلسفته كما وضع
لها برنامجاً اقتصادياً ، ولكان عليه أن يؤمن — أو يؤم — القوة كما
أمن — وأمن — الثروة .

وليس معنى هذا أن القرآن يمجّد أثر العامل المادى . فقد وضعنا فى الفصول السابقة كيف كان وازع الربح سبيلاً إلى الطغيان . وكيف أن مسئولية الأغنياء لا تقل عن مسئولية الملوك والأمراء . كما وضعنا أثر البيئة المادية فى هؤلاء أيضاً وقد قدم القرآن قارون على فرعون فى إحدى الآيات « وقارون وفرعون وهامان . ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض . وما كانوا سابقين » . والعامل المادى عامل من عوامل الانحلال لدى القرآن . كما هو لدى ماركس ولكن القرآن يرى أن العامل المادى نفسه إنما يعود إلى الفسوق عن الدساتير الإلهية ومخالفة شرائع الأنبياء . فالسبب الأصيل هو الفسوق والكفر ولو اتبع القصد الذى أمرت به الأديان جميعاً لما كان العامل المادى عاملاً من عوامل الانحلال .

— ٦ —

النهاية ... ثم البراية

أخيراً تأتى النهاية ، بعد أن رفضت الشعوب والقادة دعوات الأنبياء ، ونداءاتهم الحارة التى أخذوا يوجهونها إليهم فى اناة ، وصبر « .. يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة . لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون !! » « ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة . وتدعوننى إلى النار » « قال يا قوم إنى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعوه يغفر لكم ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب انى دعوت قومى ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فراراً . وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصرروا واستكبروا استكباراً . ثم انى دعوتهم جهاراً .. ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسراراً .. » .

والنهاية في القرآن تستحق وقفة قصيرة ، فهي دائماً تتسم بطابع حاسم .
إذا جاءت ساعتها فلا تستأخر ولا تستقدم ، ولا ينظر أصحابها ، بل ولا يأس
عليهم أحد . وهي بعيدة كل البعد عن فكرة المهادنات والمساومات والميوعات
وهي تأخذ شكلاً مدمراً في كل الأمم التي أورد القرآن قصصها اللهم إلا قوم
يونس ، كأن الخاتمة الرهيبة نهاية لازمة لكل طغيان .

وقد تنوعت صور المصير في القرآن على اتفاقها في هذا الطابع « . . فأما
عاد قاستكبروا في الأرض وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذي
خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يمحذون . فأرسلنا عليهم ريحاً
صرصرأ في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الحزى في الحياة الدنيا ولعذاب
الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا لعمى على
الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » .

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد
فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً
فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » « فأخذتهم الصيحة
مشرقين فجعلنا عاليها سافلها . وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن في
ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لسييل مقيم » ،

« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق
ربكم واشكروا له . بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل
العرم وبدلناهم ببخيتهم جنتين ذواتى أكل خبط وأثل وشئ من سدر قليل » .
« فكلأ أخذنا بذيبة . فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً . ومنهم من أخذته
الصيحة . ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أعرقنا . وما كان الله
ليظلمهم . ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

وبعض الناس لا يفهمون هذه المصائر القاسية من ناحيتي الحكمة .
والعدالة . فهم لا يرون صلة بين عصيان شعب لنبي من الأنبياء . وبين حدوث
زلزلة أو طوفان أو ريح ، وهم كذلك يستفزعون هذه الكوارث القاسية
كمصير ، أو طريقة تأديبية .

ومن العجيب أن يسلم الرجل العلمى بأن سبب هذه المصائر جغرافى بحث
ثم لا يفقد معانى العدالة فى اجتياح هذه الكوارث للآمنين من أهلها . إن
القرآن ، وإن لم يقل إن هذه الكوارث قد تمت بطريقة خارقة للأسباب
الطبيعية — إذ أن ذلك يخالف قاعدة أساسية للقرآن هى الأخذ بالأسباب —
إلا أنه يوضح لنا ما لا يستطيع العلم توضيحه . وهو أن هناك ترابطاً بين
العصيان . وبين الجزاء الذى مثله الكارثة ، وما من شك فى أنه مما يريح
النفس أن تعلم أن الحوادث لا تجرى خبط عشواء . وإن عوامل الطبيعة
تخضع لإرادة عليا ، منظمة عادلة .

وأما من ناحية العدالة . فأظن أن من الوقاحة أن تتساءل عن عدالة
مثل هذا الجزاء بعد أن استبحنا لأنفسنا الحق فى إلقاء قنبلة ذرية تأتى على
الأخضر واليابس لأسباب سياسية واهية .

على أن القرآن ، فى الواقع ، يشير بهذه المصائر إلى قانون اجتماعى عظيم
هو تطور المجتمعات الإنسانية ، وسقوط جماعات ليخلفها جماعات أصلح منها .
إن فناء العاجز وبقاء الصالح . قاعدة واضحة جداً فى القرآن ، وكان لابد من
أن تبيد الجماعات الفاسدة ، ليقوم على أطلالها أجيال أصلح منها ، كما أن خلف
هذه الأجيال ، عند ما يصاب بالعمى والعجز والضعف يكون قد قضى على نفسها .
بمصر أجداده الذين ورثهم . ويكون عليه أن يخلى المكان ، أمام أجيال أخرى .

إن هذه الفكرة الموضوعية من الأفكار القيمة التي يبرزها القرآن .
والتي تتفق مع موضوعيته ، فكل الأمم سواء أمام القرآن ، إذا صلحت
كتب لها البقاء . وإذا فسدت قُدر عليها الفناء ، ولا نجد في القرآن ما يجده
في التوراة مثلاً من إشار الله عز وجل لشعب مختار ، فوق كل الشعوب .

وهكذا يربط القرآن النهاية بالبداية ، النهاية الشائخة المدبرة ، المولية ،
بالبداية الشابة ، الناهضة ، المقبلة ، ويصور حلقات الزمن ، وسلاسل الأمم ،
والشعوب ، بعضها يقوم على أنقاض بعض ، يرثون أرضهم ، ويسكنون
مساكنهم : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض لله يرثها
عبادى الصالحون » .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما
استخلف الذين من قبلهم . وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم
من بعد خوفهم أمنا » .

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا . وجاءتهم رسلهم بالبينات
وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في
الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » .

« وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة . وأنشأنا من بعدها قوماً آخرين » .
« نخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف
يلقون غياً » .

« فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها
بنى إسرائيل » .

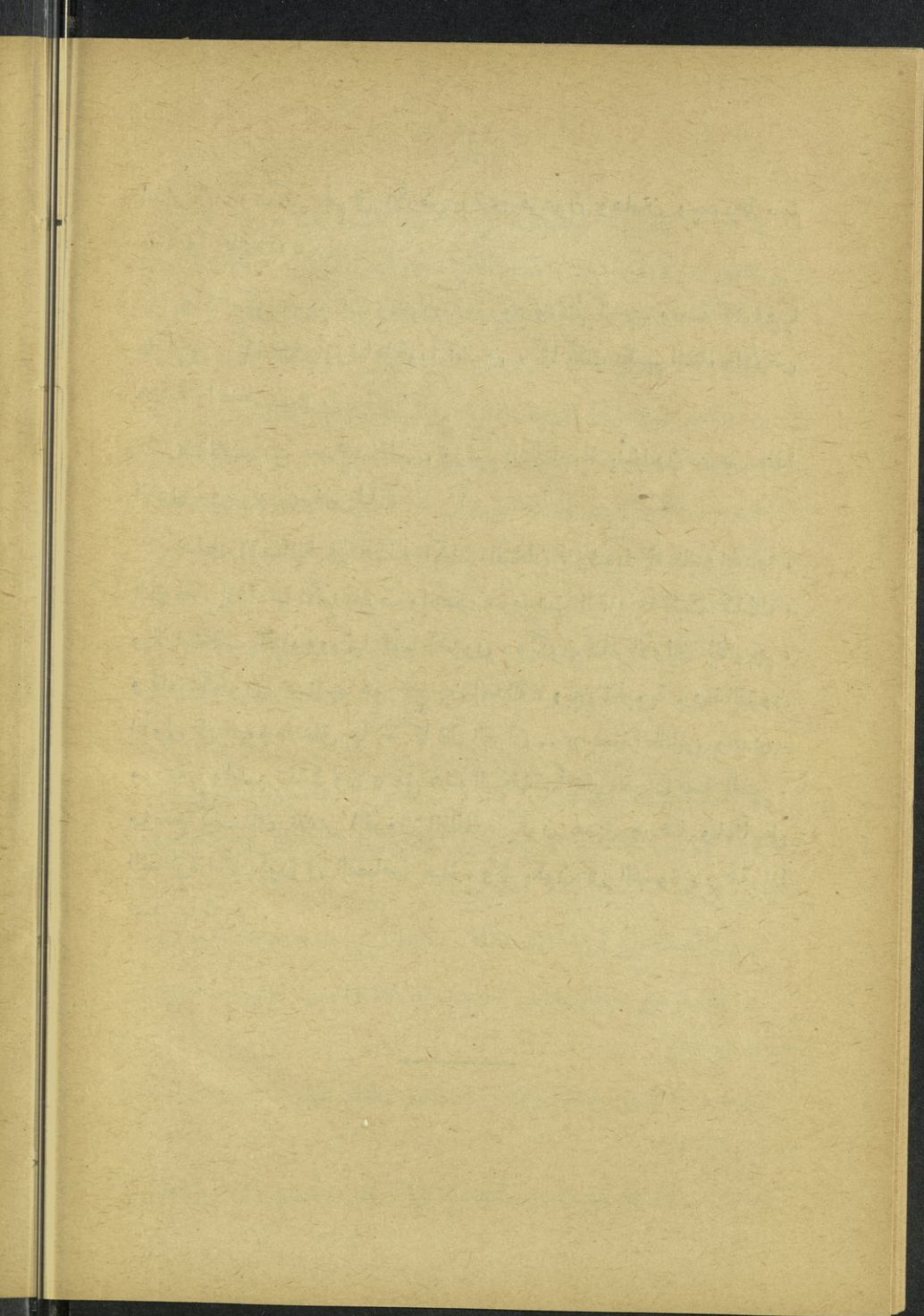
« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم

الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . »

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين . »

« خلف من بعدهم خلف ، ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون سيغفر لنا . »

فالحياة الإنسانية في هذه الآيات امتحان ، وشوط له غايته المحددة ، المعلومة ، إذا أدتها الأمم سارت وانتصرت وضمنت البقاء ما بقيت كذلك ، وإلا استحققت القضاء وورثها قوم آخرون ، ويكون فناء الأولين بذنوبهم ، وبقاء الآخرين بحسناتهم هو جمع بين العدالة ، وبين الحيوية ، وما القرون الأولى على قسوة ما حاق بها إلا كما قال القرآن .. « بصائر للناس وهدى ، ورحمة ، ولعلمهم يتذكرون » ففي هذه الكلمات أجمل القرآن قصة المصير ، ووضح كيف أن تدمير القرون الظالمة ، يكون هدى ورحمة وباعثاً على التذكرة ، كما يكون في القصاص حياة ، وكما يكون في القسوة ، رحمة إذا قصد بها الزجر .



خاتمة

وأداء واجب

كُتبت كلمات هذا الكتاب في فترات متقطعة من عام ١٩٥١ والأحكام العرفية مسدلة أستارها الكثيفة على حرية الفكر « والاستبداد في عنفوانه . والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد . والناس له عبيد أى عبيد »^(١) . وما كنت أطمع في نشره وإذاعته إلا بطرق أتكلف فيها الكثير من العنت والإرهاق ثم لا آمن بعد ذلك المضايقة والمصادرة والمحاكمة . فظل وديعة الأدراج المقفلة . لا أعود إليه إلا عند ما تضيق النفس ، وتثور الحواس . وتشتد الأحداث . فأضيف كلمة هنا ، ونبذة هناك . وبذلك قدم إلى هذا الكتاب خدمة كبرى في معتقلى الكبير كما قدم لى كتاب « قادم من الطور »^(٢) الخدمة نفسها في معتقلى الصغير .

ولست أنسى أوقات كانت الكتابة فيها فثناً لغيظ ، وفصداً لدم ، وتهدة لتفزز ، كما لا أنسى أوقات أخرى كانت مطالعة القرآن الكريم وتدبره من الزاوية التي اتخذتها في هذا البحث فتوحاً وفيوضاً واكتشافات كلها تؤيد الفكرة الشعبية حتى وجدت نفسى ذات يوم أشمئز من الركوب في إحدى هذه العربات الفارحة اللامعة التي تتهادى في خيلاء ، وسط الحافين العارين . وتوجهات القرآن للقادة والشعوب تظن في أذنى وتكاد تخرقهما .

(١) من كلام الشيخ محمد عبده في سيرته .

(٢) كتاب للمؤلف يتضمن يومياته في معتقل الطور . ولم يطبع بعد .

فلهذا الكتاب فضل مضاعف على : فضل ككاتب يستجد بالكتابة في ساعات اليأس والضيق فتنتشله من الهاوية ، وتصد به إلى عالم النضال ، وترد عليه الآمال . وفضل كرجل شعبي ترتد إشعاعات الآلام المحرقة المضنية على نفسه ، وتهاوى على رأسه مطارق الحياة وتملاً أذنيه صليل قيود للمجتمع لا حد لحلقاتها ، ولا نهاية لسلسلها .

ولما أذن الله أخيراً بنهضة الجيش بهذا الانقلاب الخالد الأغر ، ومضت أيامه الأربعة التاريخية من بدء الحركة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ حتى تنازل الملك فاروق في ٢٦ يوليو وتوالت الانتصارات الشعبية ، من إلغاء للبوليس السياسي ، إلى محو للألقاب ، إلى تحديد للملكية . عدت إلى أوراق هذا الكتاب ، أرى من الحق أن يبصر نور المكاتب ، وينقل إلى أيدي القراء ، بعد أن احتبس طويلاً في الأدراج ، كما احتبست معانيه في النفوس .

ولست الآن بصدد تقدير عمل الجيش ولا اليد التي أسداها إلى البلاد طائفة من أكرم شبابه عليها ، وأقربها رحماً بها ، وأعظمها شمولاً لفضائل المصريين التليدة . ولكني أقول مجحلاً إنها خطوة حطمت السدود أمام الإصلاح ، وقفزت بالبلاد سنين طويلة . ويد لهؤلاء الأبطال في عنق كل حر كان يضيق بالظلم ويعمل على رفعه ، فأدوا له ما كان يتوق إليه ، وعرضوا أنفسهم للتضحية والفداء بدلاً منه .

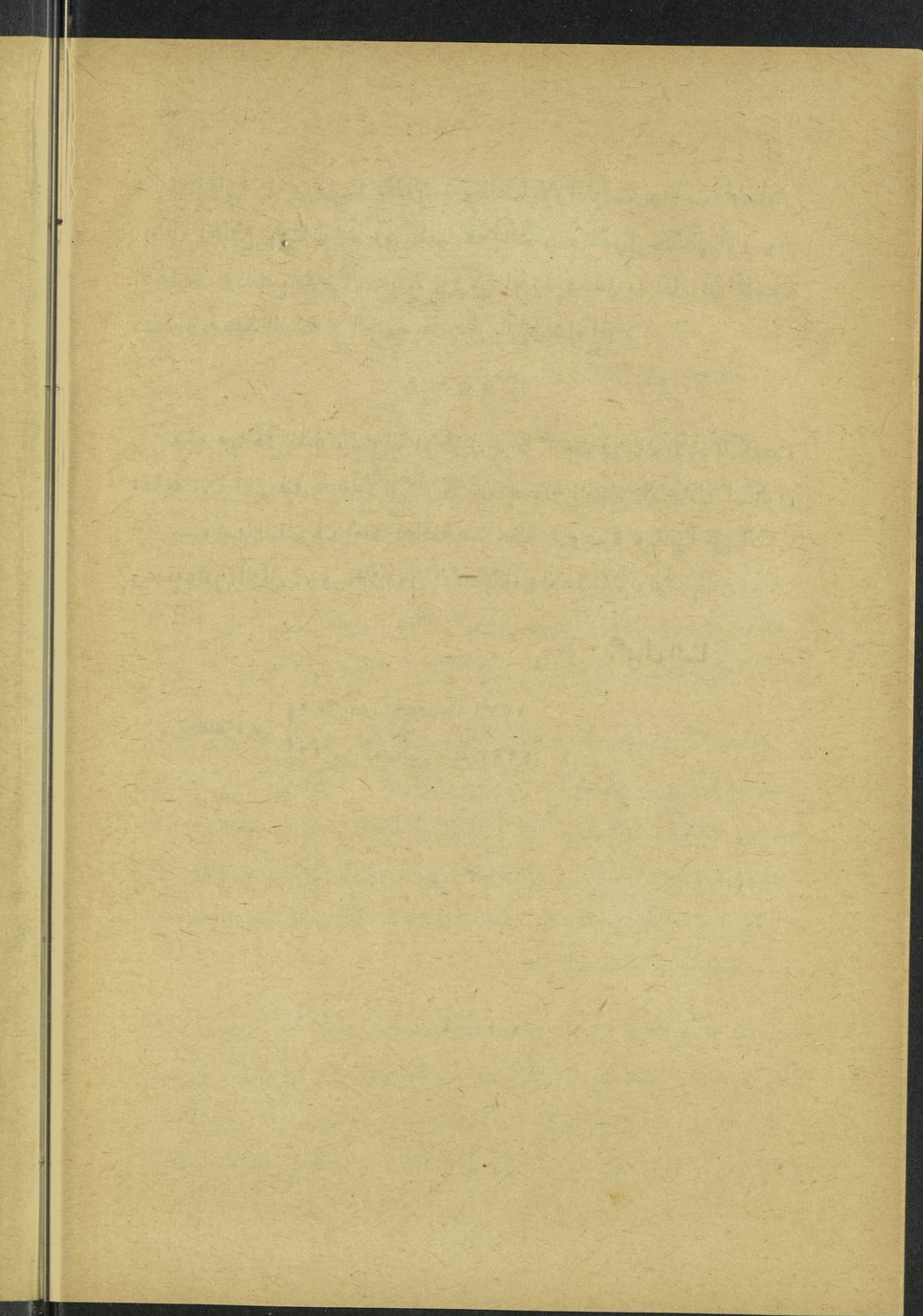
ولقد فكرت في أن أهدي هذا الكتاب إلى بطلنا محمد نجيب وزملائه الأحرار كتعبير متواضع عن شكرى . . وتقديرى ، ثم رأيت أن أبقي على الإهداء الأول بما فيه من استثارة دأمة للشعب . . والشعب بعد ، سيد الجميع وكلنا نستمد نحرنا من الانتهاء إليه والاتصاق به ونقيس فضائلنا بدرجة

محافظةنا على شرفه ورعايتنا لحقه .. وطاعتنا لإرادته .. ورأيت أن أوثق
أبطال الجيش بكتاب خاص يظهر فيه الشكر والتقدير بشكل أبرز من
الإهداء ، وذلك بتقديم النصح .. وذكر الخبرة وهذا ما أمل أن تتضمنه
دفات « ترشيد النهضة » الذي سيظهر قريباً إن شاء الله .

وبعد فها هو ذا « مسئولية الانحلال » كما كتبت في تلك الأيام المكفهرة
المقامة .. لم أغير فيه حرفاً لأنني أريد أن يصور انطباع الانحلال ليكون
فيه — ونحن نستشرف آمالاً عظيمة — عظة .. وعبرة وحافزاً على التقدم
وعصمة من الزلل .. وحائلاً دون الاستخذاء والاستسلام والاستهانة .

جمال البنا

القاهرة في ٥ من ذى الحجة سنة ١٣٧١
٢٦ من أغسطس سنة ١٩٥٢



فهرس

صفحة

٣	إهداء : إلى الشعوب
٥	مقدمة

الباب الأول

عنصر المسؤولية في القرآن الكريم

١٢	تصوير المسؤولية في القرآن
١٣	وجود المسؤولية وتوكيدها
١٥	مدى شمول المسؤولية
١٩	المسؤولية واقعة على المسئول وحده
٢٤	الإغراء لا يعد مبرراً للإعفاء
٢٧	إعفاء السهو والخطأ

الباب الثاني

مسؤولية القادة عن الانحلال

٣٢	القادة والقيادة قديماً وحديثاً
٤١	أهمية القيادة ومدى تأثيرها على الشعوب
٤٧	رسالة القادة وتوجيهات القرآن للأنبياء

صفحة

٥٤	 أثر هذه التوجيهات في النهوض بالقيادة الإسلامية
٦١	 كيف ينقلب القادة دعاة الانحلال
٦٣	 مسئولية القادة الإيجابية عن الانحلال [الطغيان]
٦٩	 مسئولية القادة السلبية عن الانحلال
	 [رفض الدعوات الإصلاحية وحررها]
٧٧	 طوائف أخرى من القادة
٨١	 مسئولية الاكليروس والشيوخ عن الانحلال
٨٧	 مسئولية رجال المال عن الانحلال

الباب الثالث

مسئولية الشعوب عن الانحلال

٩٨	 الشعوب المغلوبة على أمرها
١٠١	 تكييف مسئولية الشعوب وأساسها
١١٣	 مسئولية الشعوب السلبية عن الانحلال [الاستخذاء]
١٢٣	 مسئولية الشعوب الإيجابية عن الانحلال [محاربة الدعوات]
١٣٨	 صراع الطبقات
١٤٥	 النهاية .. ثم البداية

خاتمة

وأداء واجب

ظهر

للمؤلف

ثلاث عقبات في الطريق إلى المجد

صدر في سنة ٤٥

ديمقراطية جديدة

صدر في سنة ٤٦

على هامش المفاوضات

صدر في سنة ٤٧

تقد النظرية الماركسية

صدر في سنة ٤٨

تحت الطبع

ترشيد النهضة

دراسة نقدية وتوجيهية لإنتقال ٢٣ يوليو ونظرة في المستقبل المصرى

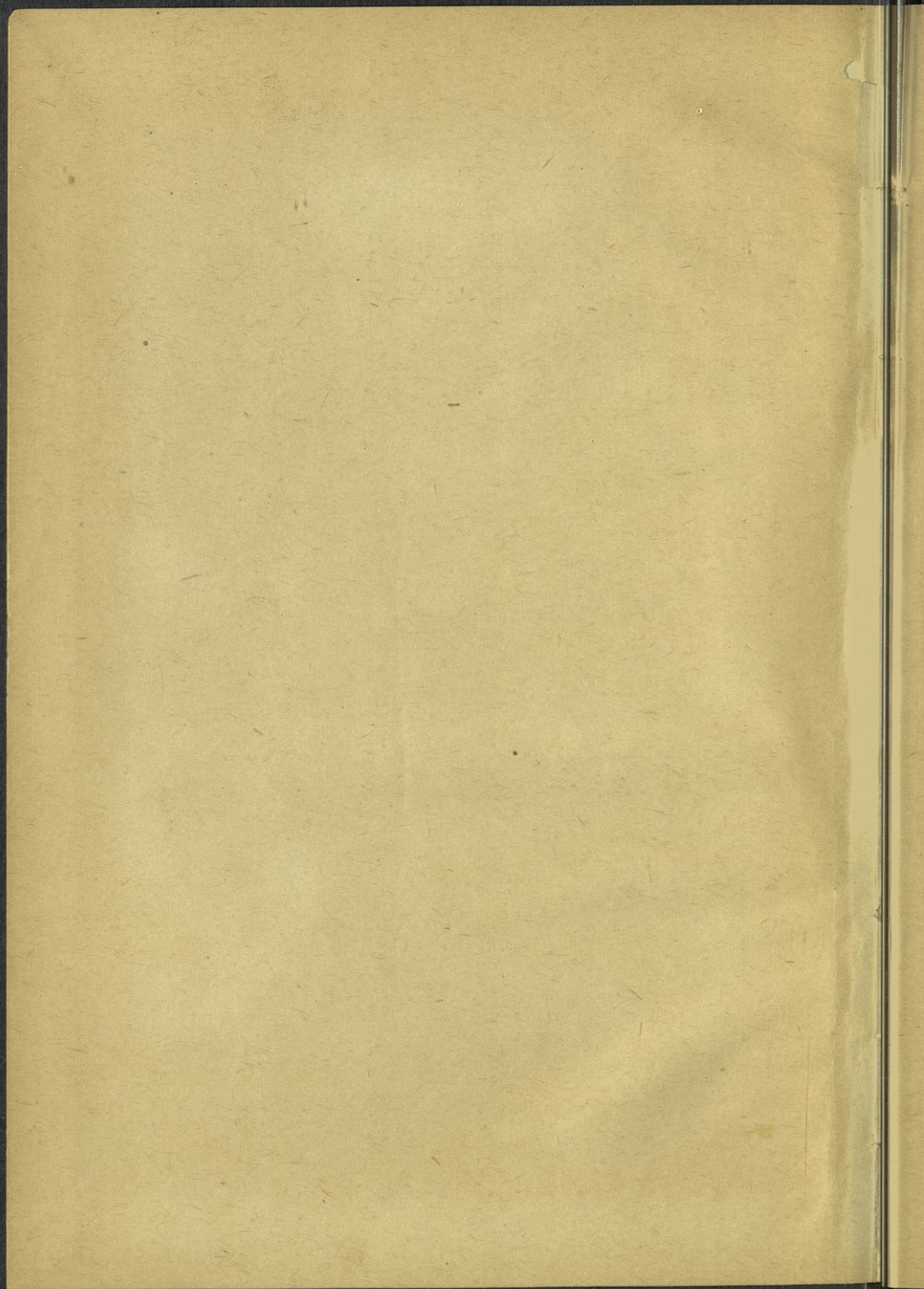
أثر الفكرة الإسلامية في الوطنية المصرية

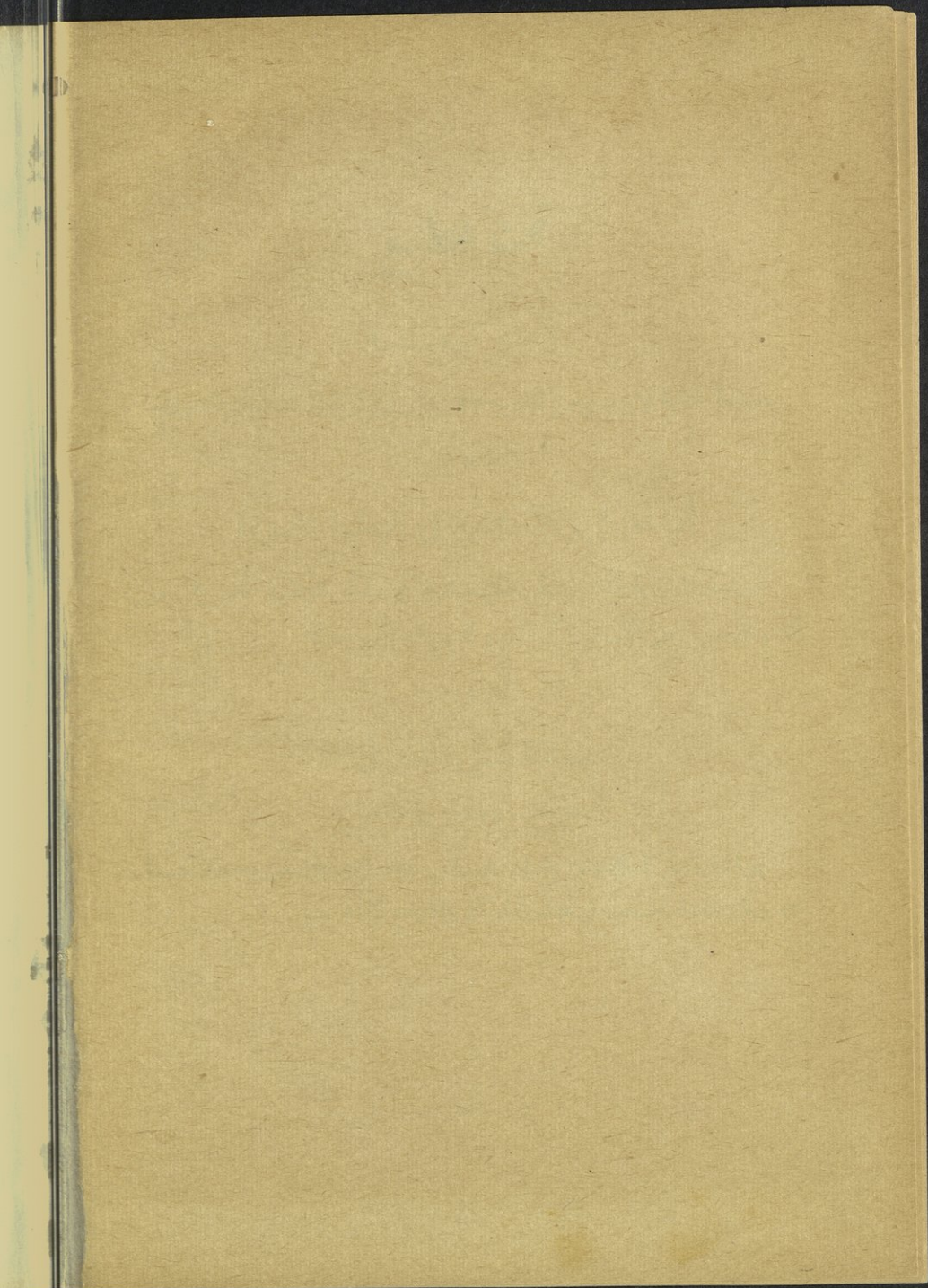
دراسة تاريخية لأثر الفكرة الإسلامية في نشأة الوطنية المصرية . من أقدم العصور حتى الآن . وأثر المقوم الدينى قديماً وحديثاً .

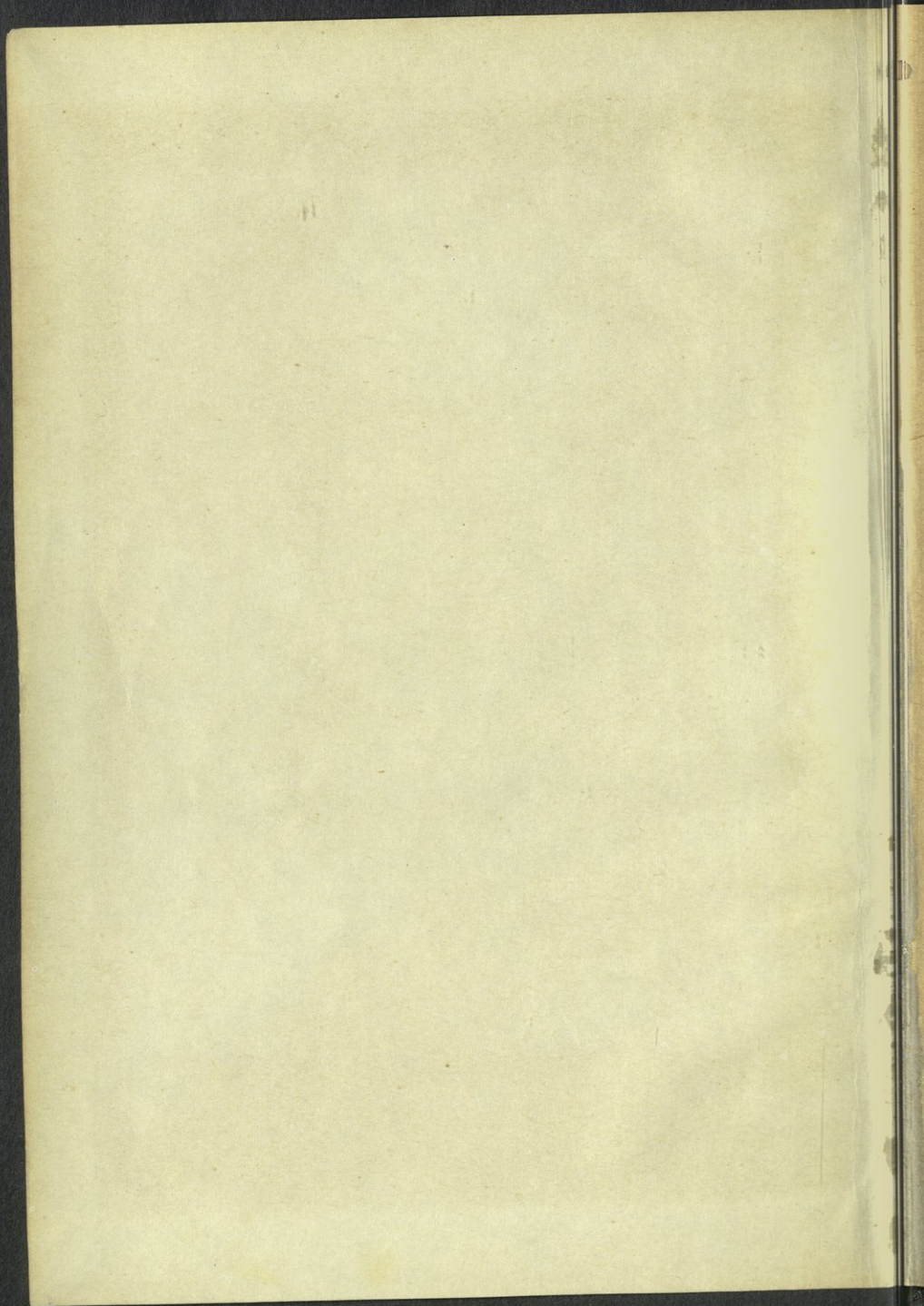
قصة الدستور المصرى

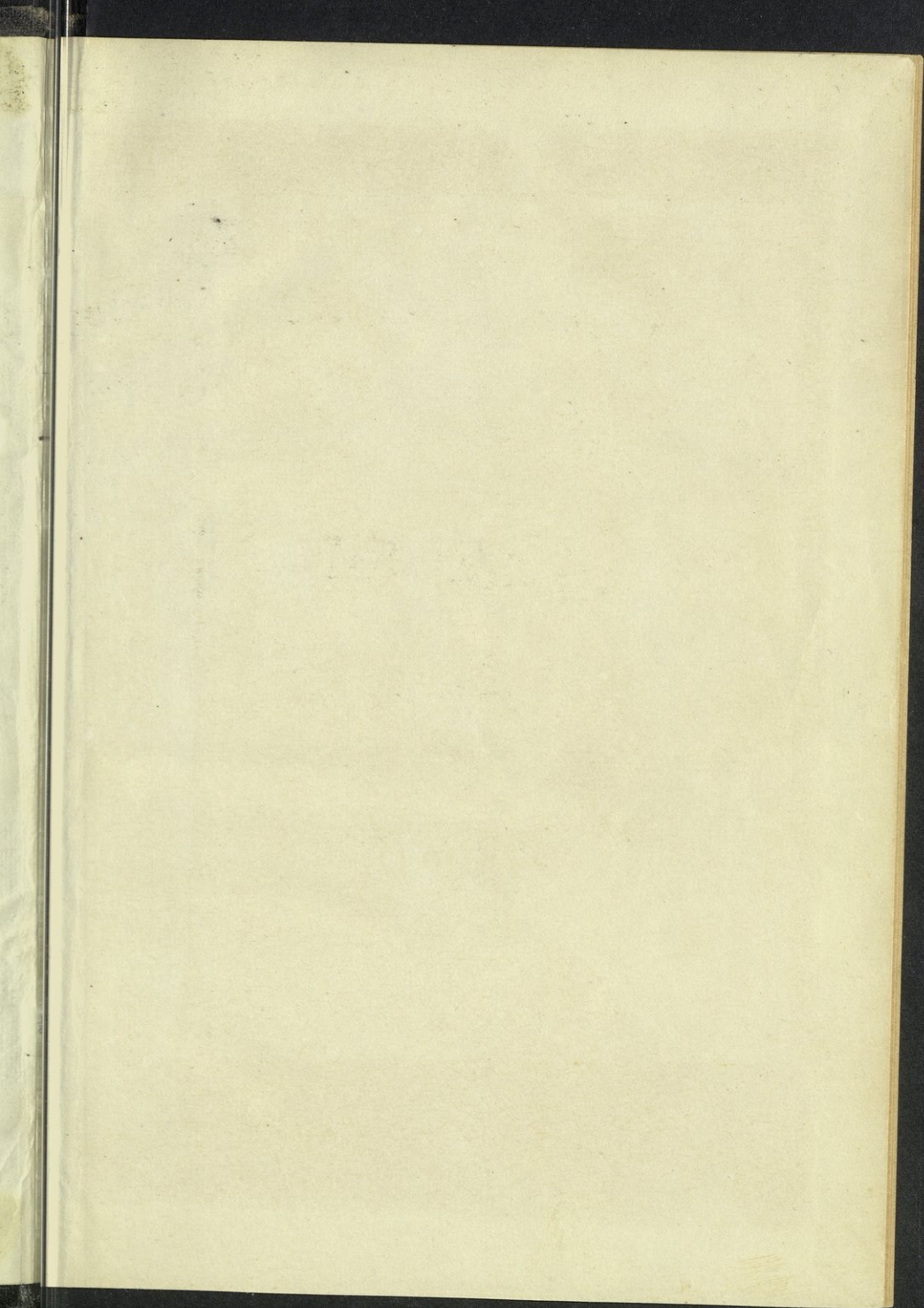
عرض . ونقد . وإصلاح

دراسة للحركة الدستورية فى مصر من عهد محمد على حتى دستور سنة ٢٣ ونقد لنقط الضعف فى هذه الحركة واقتراح لإصلاحها .









301.155:B21mA:c.1

البناء، جمال

مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01010193

American University of Beirut



301.155

B21mA

General Library

